وزارة الثقافة

رقمي

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

روايـــة

بيت للرّجم
بيت للصلاة

أحمد عمر شاهين

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

اسم الرواية: بيت للرجم بيت للصلاة

اسم المؤلف: أحمد عمر شاهين

تصميم غلاف: غاوي خليل

تدقيق لغوي: نور عرفات

تصميم وإخراج فني: غاوي خليل

صفّ وتنضيد: شادية الخطيب

منشورات: وزارة الثقافة الفلسطينية

الطبعة الأولى: دار الثقافة الجديدة بالتعاون مع الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين (1988)

الطبعة الثانية: وزارة الثقافة الفلسطينية (2023)

جميع الحقوق محفوظة.

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق إستعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved

No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, withoutprior permission of the publisher.

سنة الإصدار

(2023)

رواية

بيت للرّجم
بيت للصلاة

أحمد عمر شاهين

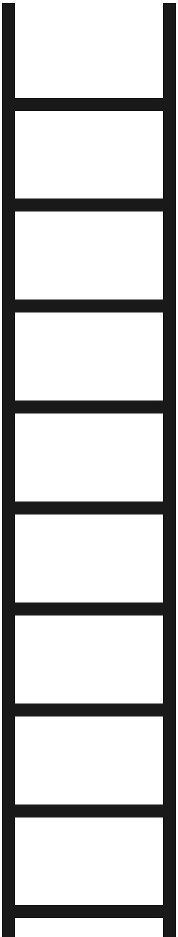

أحمد الكبير يستعيد أحمد الصغير وأشياء أخرى

حين لاح لعينيه الحائط المتهدم، الفاصل بين الحي الصاخب، بنوادبه وملاهبه الليلية، ومراسمه ومطاعمه الفخمة، وحوانيته الأنيقة، وبين الحي القديم الذي يحمل ملامح المدينة العريقة التي أصبحت تابعة وصاحبة لتل أبيب، أصابته رجفة، وأحس كمن يزيل الغبار عن كتاب سحري، يفتح صفحته الأولى ليدخل عالمًا غريبًا محببًا إلى نفسه، يشدّه ليغرقه في جو من أحلام يتشوق دومًا إليها.

ركن سيارته تحت شجرة أكاسيا تقف عند مطلع الحي قرب كشك خشبي يملكه كسيح يبيع الخردوات، أشعة الشمس الغاربة تضفي على المكان سحرًا يعيد إلى نفسه طمأنينة تنشرح لها نفسه، وتزيل سحابة الخوف التي تحلّق فوق حياته، ولا تفارقه إلا لمامًا، وتفقده استمتاعه بأي شيء وكل شيء، خوف لا يبوح به لأحد، يقهره ويكتمه لتتزايد كثافته مع الزمن، يضغط على أعصابه يكاد يحطمها، وهو يحاول أن يعيش حياته متظاهرًا بالشجاعة والمرح.

وما إن تطأ قدمه بداية الطريق حتى يحس بأنه عاد طفلًا صغيرًا يتدحرج سعيدًا على هذه السلالم. أزقة ضيقة، طرق صاعدة ملتوية، درجات مكسرة، بيوت على الجانبين، حرّم على أصحابها إصلاحها أو ترميمها، كي تسقط فوق ساكنيها، أو يتركونها ليقوموا بعيدًا عن المدينة، لكن الكل يتمسّك بهذا

القديم، يتحمّل في سبيل الحفاظ عليه الكثير، فهو حياته وكبرياؤه وعزاؤه، فهم هنا سادة المكان بعد أن ضاعت سيادتهم في أماكن كثيرة. ينتظرون بصبر تظلله حيوات سابقة عاشوها، إن زالت من واقعهم فهي تعشعش في صدورهم، لا يراها أحد، لكنهم يرونها كل ساعة مجسدة أمامهم، تعطيهم القوة وبسمة الأمل، يورثونها لأولادهم، نقشًا على القلوب وغرسًا في العقول.

عيونهم حذرة، تحمل الكثير ولا تفصح إلا عن أقل القليل، وأي غريب يدخل الحي تلاحقه نظراتهم، تخترقه، فتكاد تلمس الرعشة تسري في أوصاله وهو يسرع الخطو ليتخلّص من كتمة المكان على أنفاسه أو يستنجد بأحد يعرفه ليخفف عنه الضيق الذي يحتويه.

الحاج مصطفى الحلاق، بأدواته القديمة وصوره المعلّقة على الجدران المتآكلة وكراسيه التي اهترأت وتقطّع قشّها وابتسامة عذبة ترتسم على وجهه وسط هذه اللوحة العتيقة وهو يرد التحية ويردف: لم يرد الله بعد.

الشيخ يوسف مصباح صاحب المكتبة، يبيع الكتب القديمة والحديثة بكل لغات الأرض إلا العبرية، نهبوا منه في الأيام الخوالي كثيرًا من الكتب التراثية، لم ينبس ويردد: ماذا كنت سأفعل معهم؟ تقف معه في دكانه القديم ابنته، تلبس بدلة من الجينز، تحمل كتابًا بيدها وتداعب الشيخ سعيد الزبون الدائم لوالدها، يجلس على كرسي من الخيزران وضعه على الرصيف أمام الدكان. قال: تفضل اشرب قهوة.. وأضاف: هذه بقايا يافا يا أحمد.. بقاياها بعد أن تحوّلت أحلى أحيائها إلى نواد ليلية وبيوت دعارة وفنادق تسمع فيها كل اللغات إلا العربية، اجلس لتشرب قهوة.. رد عليه بقوله: بارك الله فيك وأمد في عمرك حتى ترى يافا كما تحب وتشتهي، آه يا عيني أود فقط أن أموت وأدفن دفنة

كريمة في مكان لا تصله جرافاتهم، تهدمه وتقيم عليه شيئًا لهم. الزمن يعاكسنا يا أحمد. تهون يا شيخ سعيد.. ويتنهّد الشيخ سعيد ويقول: خذني معك حتى أذهب للاستعداد لصلاة المغرب.

قام عن الكرسي، ترنّح حتى كاد يقع، أسرع ليمسكه من يده بينما ضحكت الفتاة وقالت: من الخمارة إلى الجامع!

نهرها والدها، بينما سار مع الشيخ الذي كان يهتز داخل قمبازه محاولًا أن يتماسك. قال: كيف ترى الأمور يا أحمد؟

لم يرد عليه، يريد أن يسرع ليهيّئ المجلس لأولاد الكلب، لكنه اليوم جاء مبكرًا على غير عادته، اعتاد أن يأتي وقد أرخى الليل ستائره على المكان وأقفلت الحوانيت والمحال الصغيرة أبوابها، يتحاشى لقاء من يعرفهم حتى يتجنب الحديث والأخذ والرد، أكثر ما يضايقه أن يسأله أحد عن الأحوال، فهو يثير بذلك صراعًا وحشيًا داخله ليتصاعد بخار العجز والخوف ليغلف تفكيره.. لم يعد يحس بالزمن فهو يعيش بقوة اندفاع الحياة داخله لا يدري منذ متى توقف إحساسه بمرور الزمن، منذ ركن إلى عمله الذي يمارسه أو فُرض عليه أن يمارسه.. أو منذ تحسّنت أوضاعه المالية، أو منذ فقد نفسه التي يعرفها.. لكنه في داخله يكاد لا يعترف بالسنوات العشرين الماضية وكأنها ليست من عمره، توقف بها مرور الزمن بالنسبة إليه، هذا ليس زمنه. إنه ينتمي إلى عالم مضى، يحاول أن يهيل عليه أكوامًا من رمال مشاغل حياته الحالية لينسى فلا يستطيع.

قال الشيخ سعيد: لا تؤاخذني.. ربما تعتب عليّ أيضًا..

رد عليه دهشًا: ولماذا أعتب عليك؟!

- لأني أشرب علبتين أو ثلاثة..

ابتسم، لم يرد، وعاد الشيخ سعيد ليقول: أعرف أني أستحق الجلد.. لكن الذنب ليس ذنبي فلا أستطيع أن أمنع نفسي، لو امتنعت لانتهيت فالوعي قاتل! لكني وأصدقك القول أكون أكثر خشوعًا وانتباهًا في صلاتي بعدما أشرب.. أقرأ القرآن وأتمعن معانيه والدموع في عيني فأشعر أني أقرب ما أكون إلى الله.

ربّت على كتفه، ودّعه قائلًا: إني أفهم.. وليس لك أن تبرّر أو تفسّر..

المسجد تهتّكت جدرانه ونوافذه، بجواره مدرسة الحي ما زالت قائمة بجهود أهله، يصعد السلالم الحجرية بحذر، يدفع الباب ويدخل، أم عبده متكومة في الركن، عجوز في السبعين ترهقها كثرة القيام والقعود، جهزت الغرفة العلوية على الطريقة العربية.. مساند ومراتب وكوانين نار، الدفء يسري في أوصاله لحظة أن دخل.

قالت: هل أحضر لك العشاء يا بني؟

تعرف أنه لا يتعشى عندها لكنها تكرر جملتها كل مرة يحضر فيها.. حينما لا يرد عليها تقول: تصبح على خير.. وتنسحب إلى غرفتها السفلية لتنام، فهي لا تحب أن تراهم وتتحسر دومًا على ما وصلت إليه حاله، لكنها لا تتكلم تنهنه فقط.

يخلع حذاءه ويلقي بنفسه على المرتبة، يلف سيجارة يخلط دخانها تحشيش المدن، يشعلها ويأخذ الأنفاس باستمتاع، يدخن لينسى كما يقول لنفسه، لكن الكوابيس التي تحط عليه أقوى من كل حشيش الأرض، يعجب ماذا يريد أولاد الكلب أن ينسوا وقد أخذوا كل شيء، يهز رأسه ويتمتم، كلٌّ عنده ما يريد أن ينساه.

سيجارة ثانية.. بعد قليل سيحضرون، ينادون عليه من أسفل السلم بلغتهم العبرية الممجوجة، يمكنه أن يحب كل لغات الأرض عدا هذه اللغة التي يتمسحون بقربها من العربية، لغة كنبش الدجاج، لفظها كبرطمة أطفال لم تستقم مخارج الحروف في أفواههم بعد، يعتزون بها، فرضوها على كل شيء، وأدخلوها في الأكل. والشرب والقيام والقعود. حين يسطلون ينسونها ويرطنون بلغات فجاج الأرض العميقة التي جاءوا منها.

تأخروا.. عليه أن يقوم بالطقوس وحده، أحضر كوبًا فارغًا، ودس «دبوس إبرة» في قطعة ورق مقوى شبك فيه قطعة حشيش بعد أن خدّلها، أشعلها وأقفل فوهة الكوب بقطعة "الكرتون"، دخان الحشيش يتصاعد أبيض فوارًا فيمتلئ الكوب، وحين تزداد كثافة الدخان يزيح قطعة الورق المقوى قليلاً، ويأخذ نفسًا عميقًا، يحس بالدخان يتصاعد إلى أعماق مخه، ينعش الذاكرة بدل أن يطمس الذكريات. في أول مرة كانت الأنفاس الثلاثة أو الأربعة تغيّبه تمامًا، يحتاج الآن إلى عشرين نفسًا نقيًا ليصل إلى الحالة التي يبغيها. بعد النفس الثامن انتهت قطعة الحشيش.. استلقى على المرتبة ساكنًا، تسيطر عليه رغبة في أن يظل مستلقيًا دون حراك حتى الصباح، الدفء المنبعث من كوانين النار يدغدغ حواسه، والذاكرة تسحبه إلى عالم آخر يحاول أن ينساه. كابوس دائم يحط على أنفاسه كلما خلا إلى نفسه أو استلقى على سرير. لماذا رحلوا؟ كلما تذكر ذلك اليوم البعيد يحسه قريبًا كأنه الأمس، ويدٌ ثقيلة تعصر قلبه وتسحب عقله معها في دوامة عنيفة إلى أعماق محيط مجهول لا يصل فيه إلى قرار.

أحيانًا يتساءل بصوت عال، فتردد أم عبده التساؤل معه "لماذا رحلوا؟". يدفعها إلى ذلك الشوق إليهم، أما هو فلا يشتاق إلى أحد على وجه الخصوص.. يشتاق إلى المحيط الذي كان يطوقه، والجو الذي كان يحيطه ويغرق كل شيء في الكون حوله كأشعة الشمس الدافئة في صباح يوم ممطر، تبعث في النفس البهجة والانتعاش.

من هم أصحابه الآن؟ ديفيد وأنجيل وعاموس بعد حسين ومحمد وفريد. كان المكان حوله يعج بكل من يحبهم ويستريح إليهم، الحاج محمد، الشيخ حسن، الأستاذ مدحت والحاجة نفيسة، بين عشية وضحاها اختفوا جميعًا وضاع كل شيء، وبعد أن كانت صيحات الأطفال في الشوارع محمود وعلي، وكم الساعة الآن؟ والسلام عليكم، وصباح الخير، ولو سمحت، وعفوا، وآسف.. لا يسمع الآن سوى أسماء عزرا وأبراهام وديفيد وماهشعا هخشاف؟ شلوم، بوكير توف عيريف توف بيفكشا سليحا أني متستعير!

لو أنه غير مكانه وترك مدينته لفهم الأمر، لكنه في بيته وبلده التي عاش فيها هو وأجداده، حين سقط فوق رؤوسهم كل خليط اللغات وهذه الخلق الشائهة كقذائف المدافع المدمرة، سحن مقلوبة تجوب الأماكن المحببة، راجلة وراكبة، يملأون المحلات التجارية، يبيعون ويشترون، أصحاب أرض وملاك وليسوا سياحًا، وأصبح هو ابن البلد وقلة مثله مواطنون من الدرجة الثانية، ليس لهم الحق في شيء ولا حتى التذمر.

لماذا رحلوا؟ لماذا يخرج سبعون ألفا من المدينة في ثلاثة أو أربعة أيام؟ أخوفًا من قصف مدفعي يهربون؟ يذكر تلك الأيام، يذكرها كأنها حدثت بالأمس، لا تريد أن تغيب أو تنطمس من الذاكرة، قصف مدفعي متواصل أيام الإثنين والثلاثاء وليلة

الأربعاء، قصف مروع رهيب بكل أنواع الأسلحة، قنابل مختلفة الأحجام والأصوات تنفجر فوق حي النزهة في مدينة يافا فتفجر مواسير المياه في الشوارع وتقطع أسلاك الكهرباء والتليفون وتهدم وتصدع بيوتا ومحالَّ تجارية كثيرة، ويخيم الهدوء صباح الأربعاء وكأنهم يعطون الناس فرصة للهرب، ويهرع الجميع وكأنه بفعل ساحر إلى كافة أنواع المركبات، يعتلونها ويسوقونها خارج المدينة على أمل العودة بعدما تهدأ الأحوال، ومن لم يجد عربة اندفع إلى شاطئ البحر ليركب لنشًا أو مركب صيد أو سفينة صغيرة ليبتعد عن هذا الجحيم الذي حاصره. هربوا بأولادهم وبناتهم ونسائهم، خوفا من قصف المدافع ورشق الرصاص والمذابح التي سمعوا عنها وهتك الأعراض وقتل النساء والأطفال والتشويه، لم يفكروا لحظة واحدة إذا كان باستطاعة أولاد الكلب أن يفعلوا ذلك بمائة ألف أو يزيد، لم يفكروا إلا بأن كلًّا منهم هو الذي سيقتل وهو الذي سيهتك عرضه وتسبى بناته ويمثل بهن.

* * *

الذي أتى بابتسامة بلهاء ترتسم على وجهه، أو لعلها تكشيرة تبرز أسنانه ليمسكنا أنا وأخي الأصغر من أيدينا ويقودنا إلى دكانه في شارع جمال باشا قرب مصنع الثلج. كان صباح الأربعاء، المدينة مقفلة على غير عادتها، الناس تهرول ولا أحد يلتفت إلى أحد. قلت لأبي: أريد أن أذهب عند خالي في مصنع الثلج. حدجني بنظرة مرعبة بعثت الرجفة في أوصالي، كنت أرغب في الذهاب إلى مصنع الثلج القديم كما اعتدت أن أفعل كلما ذهبت إلى دكان أبي خاصة في الصيف، وكنا في مطلع الصيف تقريبا، كان خالي يضع في قوالب ألواح الثلج العنب والخوخ والمشمش، ونسير فوق ألواح خشبية تنسل

تحتها قوالب الماء متحولة إلى ثلج، تنتظر بشغف خروج اللوح المملوء بالفواكه المثلجة اللذيذة.

فتح أبي أقفال دكانه، رفع الباب الصاج فأحدث صوتا مزعجا. قلت: ألا تزيت هذا الباب؟

عاد يوجه لي نظرته المرعبة، فانزويت بعيدًا عن عينيه، دفع بنا داخل الدكان وقال: لن أغيب طويلا. اجلسا هادئين حتى أعود.

أقفل الباب ومضى، كانت دكانًا كبيرة، تتكدس فيها أكياس الدقيق والفول والعدس والفاصوليا وصفائح الزيت والسمن والطحينة. صعدت فوق أكياس الطحين لأنظر من طاقة في أعلى الجدار تطل على مصنع الثلج القديم، كان المصنع متوقفا عن العمل ولا أحد هناك، صوت انفجار القذائف أعادني مرتجفا إلى حضن الدكان قرب أخي الأصغر.

مرت علينا ساعتان أو أكثر، والعتمة الخفيفة تغلفنا داخل الدكان والفئران تبعث فينا خوفًا لم نبح به أكبر من خوفنا من القذائف، حينما فتح الباب فجأة وصدمت أعيننا أشعة الشمس الساطعة، رمشنا بجفوننا ورأينا وجه أبينا، وكلاما يخرج من فمه لم نفهم منه سوى "هيا بسرعة"..

عربة باص تقف أمام الدكان يجلس وراء مقودها خالي حامد، تضم خالاتي وعماتي وأزواجهم وأبناءهم وبناتهم.. كل أقاربنا وبعض جيراننا تكدسوا في عربة الباص، العربة مزدحمة بشكل لم أر مثله وأنا أركب عربات الباص في المدينة ذاهبا إلى السوق. قلت: إلى أين يا أبي؟

رد بكلمة واحدة وهو يدفعني إلى الداخل من باب الباص الأمامي: سنهاجر. اتجهت إلى خالي حامد الجالس خلف مقود الباص أسأله: إلى أين يا خالي؟

قال: إلى غزة..

- وأين غزة هذه؟
- في الجنوب.

دفعني أبي قائلا بغيظ: ادخل.. ادخل.. تساءلت: ماذا نفعل في غزة؟ أريد كتبي ولعبي..

قال أبي: ليس الآن.. سأحضر لك غيرهم.

قلت: وجاك.. هل نتركه خلفنا مربوطا في الجنينة؟

قال أبي: وهل تنقصنا الكلاب يابن الـ..

قلت بإصرار: أريد كتبي ولعبي!

وبدأت في الصراخ، لطمني على وجهي ودفعني حتى أصبحت في منتصف الباص، ومن خلال دموعي رأيت وجه أمي اندفعت نحوها قائلا: أريد كتبي ولعبي.

ربتت على رأسي وقالت: كلها أسبوع ونرجع يا حبيبي.

نزل أبي من الباص ومعه خالي عمران وبدءا يحملان أكياس الطحين وصفائح الزيت ويضعونها بين المقاعد، تراجعت إلى آخر العربة، الباب الخلفي مفتوح، الكل ساهم والأعين شاردة نزلت بحذر، لم ينتبه أحد، سأذهب لأحضر لعبي وكتبي، نظرت من خلف الباص، كان أبي وخالي يحاولان زحزحة

كيس دقيق تمهيدا لحمله إلى الباص، جريت إلى الرصيف وسرت بجانب الدكاكين المقفلة متوقعًا أن يعلو صوت يناديني، لكن أحدا لم ينتبه، مررت أمام سينما فاروق وكانت مهدمة نتيجة القصف، ثم من أمام السينما الحمراء حيث عبرت الشارع العريض وجريت إلى شارع الملك فيصل واختفى الباص عن نظري واختفيت عن أنظارهم.

جريت وجريت، قطعت الشارع الرئيسي إلى الشارع الفرعي الذي يقع فيه بيتنا، ارتجف قلبي خوفا، دكان بائع الصحف على الناصية، كانت مكسورة الباب بفعل قنبلة، لم تكن هكذا في الصباح أو أني لم أنتبه، بعض الجرائد مبعثرة وفتحة في الجدار الداخلي تنفذ على المخبز المجاور للدكان، توقفت قليلا أنظر إلى المشهد الجديد غير المألوف في حينا، العمارات المقابلة لبيتنا أصيبت بعض واجهاتها وبدا الأثاث للأعين من الشارع، أسرعت إلى باب شقتنا، في الدور الأرضي في عمارة من خمسة طوابق، الباب مقفول بقفل حرت كيف أدخل الشقة وأحضر كتبي ولعبي، جدار الحديقة الصغيرة التي تحيط بواجهة البيت مرتفع، لا أستطيع تسلقه، ناديت على جاك فنحن نربطه في الحديقة، لو كان موجودا لشب على الحائط ليطل عليّ، أين ذهب أو أين ذهبوا به؟ درت حول البيت فهو على ناصية شارعين فرعيين، اتجهت إلى سلم الخدم، باب المطبخ مقفول لكن دون قفل، استجمعت قوتي ودفعت الباب بكتفي، آلمني كتفي والباب صامد، الوقت يمضي بسرعة وأريد أن أعود قبل أن يسير الباص، صعدت درجات سلم الخدم، باب المطبخ في الطابق الثاني مقفول أيضًا، باب المطبخ في الدور الثالث كان مقفولًا لكن ما إن دفعته حتى فتح، دخلت، بيت صاحبي سمير هاجروا أيضًا ولا أدري لماذا نسوا إقفال باب مطبخهم، قلت في نفسي نسوه حتى أدخل منه..

بدأت البحث عن شيء يمكن استخدامه في فتح باب مطبخنا، أخذت سكينة متينة وشاكوشًا ونزلت، بدأت الدق بالشاكوش على السكين بين الباب وإطاره الخشبي عند موضع المزلاج وأدفع بكل قوتي، أتوقف بين حين وآخر لأستجمع قواي، الشوارع خالية والسائر فيها يهرول دون أن يلتفت إلى شيء، العربات قليلة مسرعة ومتعجلة كأنها تفر من مجذوم، من هو المجذوم؟! لا أدري لكن شيخي "أبو العينين" قالها لنا في حديث للرسول صلى الله عليه وسلم، سآخذ كتبي ولعبي وأسرع لألحق بالباص، عدت إلى الشاكوش والسكين، وبِكتفي وعرقي الغزير ونهنهاتي التي تخرج رغما عني، فتحت الباب.

دخلت بيتنا، وجدته كما تركناه في الصباح، لم يأخذوا شيئا معهم، حتى ملابسنا كانت معلقة في الخزانات كما هي. تسارعت دقات قلبي، هل ما سيحدث في الأيام القادمة أو الساعات القادمة يسبب رعبًا إلى هذه الدرجة؟ أم لأنهم سيعودون بعد سبعة أيام كما قالت أمي. أمسكت بحقيبتي ووضعت فيها الكتب المتفرقة والمتناثرة فوق المكتب الصغير، فانتفخت، حملت لعبي التي أضعها في كيس من الخيش بعد اطمئناني عليها، قطار يسير على قضبان، عربات بزنبركات، مكعبات مصورة، حيوانات مختلفة من الجلد والوبر والصوف.. سرت بحملي مخترقًا شارعنا الفرعي فشارع الملك فيصل لأسير على جانبه الايمن متجهًا إلى شارع جمال باشا حيث دكان أبي والباص..

وقفت على الناصية ونظرت، دكان أبي مقفلة والباص لا وجود له، تسمرت مكاني لحظات ساهمًا، انتبهت على صوت سيارة قادمة من طرف الشارع البعيد وصوت رصاص، عدت جريًا، عبرت الشارع المقفر ووجدت نفسي في بيتنا ألهث.

البيت ملكنا، نؤجر طوابقه الأربعة التي فرغت من سكانها الآن، لا أدري لماذا أقمنا في الدور الأرضي، ربما لأن حديقة تحيطه، كنت أتمنى أن نسكن أحد الأدوار العلوية، باب المطبخ المكسور قد يدخل أحد منه، حملت كتبي ولعبي وصعدت الطابق الثالث، أقفلت باب المطبخ من الداخل وتنهدت بارتياح، نظرت من الشرفة إلى مدينة يافا، بدت كمدينة مسحورة كالتي قرأت عنها في قصص كامل كيلاني، انتابني الخوف فانسحبت إلى الداخل وأقفلت باب الشرفة. صورة عائلة صديقي معلقة على الجدار، هذه غرفة والديه وهذه غرفته لم ترتب وكأنه قام من النوم لتوّه، لم أرهم وهم يرحلون، هو أيضًا لم يأخذ كتبه معه، عنده قصة الدجاجة الحمراء، لم أجدها في المكتبة وكنت أتمنى أن أمتلكها، قلبت الكتاب أتمعن في صوره الملونة وقرأت القصة ثانية، اتجهت إلى المطبخ، فتحت الصنبور، لا مياه، تذكرت أن مواسير المياه تفجرت من القصف، رأيت حنفية في الحدائق الفاصلة بين الاتجاهين في شارع الملك فيصل وكانت المياه تسيل منها، يمكنني أن أحضر الماء من هناك بحثت في الشقة عن إناء به ماء لم أجد، قلت في نفسي ما دام لا بد من الماء فالأفضل إحضاره الآن في النهار خاصة وأن القصف قد توقف.

هناك "جلنان" في المطبخ لكنهما مليئان بالكاز، عندنا "جلن" للمياه في الطابق الأرضي يكفيني أياما، هرولت أنزل السلم، أخذت "الجلن" وجريت إلى الشارع، مررت بالمخبز ودكان بائع الصحف ووقفت على الرصيف، صوت دراجة نارية يصل سمعي من بعيد، انزويت خلف عمود اسمنتي في واجهة دكان الصحف لم تؤثر فيه القذيفة، مرت الدراجة النارية مسرعة يركبها رجل مدجج بالسلاح والقنابل، تابعته بنظري، وصل إلى نهاية الشارع عند تقاطعه مع شارع جمال باشا وانحرف بعنف ناحية اليمين ليدخل شارع النزهة حين انزلقت الدراجة وانقلبت

ووقع الرجل، في ثوان كان هناك انفجار واندلاع نار، سار خطوات مترنحًا ثم سقط على الأرض، تجمهر بعض الناس لا أدري من أين خرجوا، وجاءت سيارة، أحاطوا بالرجل والدراجة ثم انصرفوا بعد دقائق وبقيت الدراجة ملقاة على يمين الشارع محترقة.

أمسكت "الجلن" بإحكام وعبرت الجزء الأول من الطريق لأصل إلى الساحة المزروعة الفاصلة بين الاتجاهين، لو لم أجد الماء لكان عليّ الذهاب إلى نافورة في ميدان النزهة على ما في ذلك من خطر، لكن الماء كان ينساب باندفاع أقل مما رأيته في المرة الأولى، استندت إلى جذع نخلة من نخيل الزينة الذي يمتلئ به المكان منتظرًا امتلاء الوعاء، أفكر بأهلي وأين وصلوا الآن، انتبهت على دفق الماء من فتحة الوعاء، أقفلت الحنفية لكنها لم تقفل جيدا، سرت أحمل "الجلن" بيدي اليمنى تارة وباليسرى تارة أخرى أو باليدين معًا. هل أصعد الدور الثالث أم أمكث في شقتنا؟.. ترددت قليلًا، لكن باب المطبخ المكسور حسم الأمر وبدأت أصعد السلم.

خطر بذهني أن أذهب إلى بيتنا القديم في البلدة العتيقة، وتساءلت.. هل شارع سوق الخضار المؤدي إلى هناك آمن؟ إنها قريبة من هنا، هناك الشوارع ضيقة وآمنة وأليفة والناس ربما لم يهاجروا، البيت ما زال ملكنا، أعطيناه لأم عبده وزوجها وابنهما ليقطنوه، وهي عائلة طيبة تقول أمي إنها جاءت من السودان، كانت تأتي لتساعد أمي في أعمال البيت، وزوجها يساعد أبي في الدكان، لم أرهما منذ فترة، أستريح لأم عبده وحضنها الدافئ، إنها تحبني وتشعرني بالحنان دائمًا، لا أذكر أن أمي احتضنتني يومًا، تعاملني ببرود شديد، أرهبها وأرهب أبي، لكن أم عبده نوعية أخرى من النساء.. يجب أن أخترق شوارع عديدة لأصل

إلى هناك، فلا أظن أن الشارع الرئيسي آمن مع هذا الرصاص الذي يئز كل لحظة، ربما لا أصل.

أم عبده وضعت قليلا من الماء في طبق كبير من الصاج، غسلت وجهي ويدي وقدمي، لكن وجهي ويديّ اتسخا ثانية وأنا أحاول إشعال موقد الكيروسين لإعداد كوب من الشاي. غسلت إبريق الشاي ووضعت فيه الماء ووضعته على النار، أين الشاي؟ نزلت بسرعة إلى مطبخنا، العديد من "البرطمانات" التي أعرفها جيدًا، شاي، يانسون، قرفة، كاكاو، زعتر، دقة، سكر، زيت زيتون، عدس، حمص، سمسم.. كانت أمي حريصة على وجود كل شيء في مطبخها، بهارات مختلفة، علبة جبنة "كشكوان"، حملت كل هذا في سلة كبيرة على دفعتين إلى الطابق الثالث، وكان في مطبخ شقة صاحبي سمير الكثير أيضًا. أنزلت إبريق الشاي الذي كان ماؤه يغلي، وضعت فيه قليلا من الشاي، وجهزت كوبين، لكن لا يوجد خبز، بدأت البحث عن الخبز في كل مكان، لم أجد ولا في شقتنا أيضًا، أخرج في الصباح لأشتري الخبز من المخبز المجاور وجريدتي الدفاع وفلسطين لأبي، الشمس توشك أن تغرب، ومعدتي بدأت تقرصني، فخرجت إلى الشارع، لا أحد، الشوارع هادئة وخالية، دخلت دكان بيع الصحف ونفذت حذرًا من الثغرة التي سببتها القذيفة في الحائط الفاصل بين الدكان والمخبز، الظلام يخيم على المكان، وقفت قليلا وقلبي تتسارع دقاته، أحدق في العتمة حتى اعتادت عيناي عليها، دواليب الخبز فارغة، بدأت أبحث تحت المقاعد الخشبية الطويلة وفي الأرفف الخلفية، عثرت على بضع كسرات ناشفة، حملتها إلى البيت فرحًا، بللتها بالماء وسخنتها على «الوابور» كما كانت ستفعل أمي، بدأت آكل زعترًا بزيت الزيتون وجبنة كشكوان وشاي.

وضعت ما تبقى من الخبز في قفة الخبز وعلقتها على الجدار. حل المساء، لأول مرة لم أسمع أذان المغرب من المسجد المجاور، النور مقطوع.. هناك لمبة كاز معلقة في أحد أركان المطبخ، خفت أن أنظف لمبتها حتى لا تكسر، فقد طلبت مني أمي ذات يوم تنظيف لمبة مصباح حينما قطع النور فكسرتها وجرحت أصبعي، كان المصباح مملوءا بالكاز، قصصت قليلًا من فتيلته، أضأته وحملته معي إلى غرفة سمير، واستلقيت على السرير. تساءلت أمن الحكمة أن أبقيه مضاء؟ أطفأته، قالت أمي أنهم سيغيبون أسبوعا فقط، سأظل على هذه الحالة سبعة أيام حتى يعودوا، لقد مضى يوم أو جزء منه على الأقل، لماذا رحلوا؟ ماذا سيحدث لو بقوا؟ هأنذا أبقى ولا يحدث شيء.

أفزعني القصف الذي بدأ واهنًا بعيدًا ثم اقترب حتى أصبح يرج النوافذ، جلست في السرير محدقًا في الفراغ مفكرًا في النزول إلى الطابق الأرضي، فهناك أكثر أمنًا، أطرافي لا تطاوعني ولا أستطيع النهوض، قلت في نفسي لن أتحرك وليحدث ما يحدث، أوصالي ترتعش، تغطيت باللحاف وسحبته فوق رأسي وبدأت أقرأ سور القرآن القصيرة التي أحفظها، وفكرة رحيلهم تلح على ذهني، ولم أدر إلا وأنا أستيقظ في الصباح.

أخذت بعض الماء بيدي وغسلت وجهي، نزلت إلى الشارع، المطر هطل غزيرا في الليل، وقطرات الماء المتبقية على أسفلت الشارع النظيف تلمع في ضوء الشمس، صباح جميل للعب والمرح، لكن أين الرفاق؟ رفعت بصري إلى البناية المواجهة، أثاث الغرف يصدمني وقد تهدمت الجدران، القصف دمر الواجهات الشرقية كلها، بيتنا واجهته جهة الغرب وخلفه بيت حماه من القذائف. أعرفهم بيتا بيتا، تجولت في

الشوارع الجانبية لا يوجد أحد واليهود لم يدخلوا المدينة، المحلات التجارية التي أصابتها القنابل وكسرت أبوابها تبدو البضائع متناثرة داخلها، هناك لصوص يتسللون إليها ويفرون بما يستطيعون حمله، كان رجل يتسلل دكان الحاج حسن، كنت أذهب لأشتري منه كرابيج حلب لذيذة الطعم، نأكلها ونحن نردد ما مر معنا في المدرسة عنها: كرابيج حلب هل أكلت منها؟ لا ولكن مدرسي أكل منها وقال إنها لذيذة. خطوت داخل الدكان حذرًا، أخذت بعضًا من كرابيج حلب وبضع قطع من الشيكولاتة وخرجت، هل تعتبر هذه سرقة؟ لو لم يغادر الحاج حسن لما سرقت دكانه، ولو دخل اليهود فسيأخذون كل شيء، لو كان حسن هنا لأعطاني إياها، سأخبره لو قابلته وسأخبر والدي أيضا ليدفع له ثمنها، هل ينهبون دكان أبي أيضًا؟.. اتجهت نحو شارع جمال باشا، مررت بسينما الحمرا، آخر فيلم حضرته فيها كان سفير جهنم ليوسف وهبي، ما زالت إعلاناته تزين جدران السينما، سينما فاروق القريبة منها تهدمت، دكان أبي لم تزل مقفلة، لا يغامر أحد بالسرقة في هذا الشارع الرئيسي المكشوف حتى لو كانت أبواب الدكاكين مكسورة، النهب يتم في الشوارع الجانبية والخلفية وقد يكسر اللصوص الأبواب من أجل حصولهم على ما يريدون لكن هل هم لصوص؟ أيعقل أن يبقى اللصوص وحدهم في المدينة؟.. قد أصبح مثلهم إذا طالت مدة غياب أسرتي، فليس معي نقود لأشتري شيئا وبالتأكيد أخذ أبي كل النقود معه، تحسست الأقفال على باب الدكان، هززتها بقوة، فوجئت برجلين يقفان فوق رأسي، امتلأت هلعًا وكادت ركبتاي تسقطاني على الأرض، أردت أن أجري، أمسكني أحدهما من يدي قائلًا: ماذا تفعل يا شاطر؟

قلت مذعورًا: أطمئن على دكان أبي.

مسح الآخر على رأسي قائلًا: لا تخف... لا تخف.. فنحن أصدقاء. أين أبوك؟

- هاجروا جميعا ونسوني هنا!
- ابن من أنت؟
- ابن الحاج إسماعيل الشواهدي.
- ألا تعرف أين هاجر والداك؟
- جنوبا إلى غزة.
- يمكننا أن ندبر لك وسيلة للوصول هناك.. تعال معنا إذا أردت.

توضحتهما جيدًا، مدججين بالسلاح، في عيونهما حزن ومحبة، قلت: وأنتما.. لماذا لم تهاجرا؟

قال أحدهما: نحن من المدافعين عن المدينة.. الذين خرجوا.. ذهبوا لينقذوا الأطفال والنساء وسيعودون بعد ذلك.

قلت: قالت أمي أنهم سيعودون بعد أسبوع. لا أريد أن أهاجر. أخاف أن أذهب ويحضروا. الأفضل أن أبقى. ربما أذهب عند أقاربنا في البلدة القديمة..

بدأ القصف من جديد..

قالا: لا تتجول في الشوارع كثيرًا.. هيا اذهب إلى أقاربك.

جريت عائدا، سقطت قنبلة شعرت أنها قريبة مني، تواريت في مدخل سينما الحمرا، ازداد القصف، أدركت أن

القنابل تسقط في شارع جمال باشا، دفعت أحد الأبواب ودخلت، كان الزجاج مكسورا، خفت أن أتوغل داخل السينما قرفصت قرب شباك التذاكر من الداخل، ترتعد أطرافي من الخوف منتظرا الهدوء.

لا أدري كم استمر القصف، لكن كان الوقت بعد الظهر حين توقف، خمنت ذلك، فأنا لم أسمع الأذان من أي مسجد بعدما كان يملأ سماء المدينة عند موعد كل صلاة فيبعث في نفسي الاطمئنان والراحة. خرجت مسرعا أجري وأنا أسمع قرقعة دبابات تأتي من بعيد. قبل شارعنا بقليل وفي شارع الملك فيصل كانت عربة خضار مقلوبة والحمار مصاب مبقور البطن، كدت أتقيّا، تمالكت نفسي، أخذت بعض البندورة والبامية والفجل في طرف قميصي، وواصلت الجري.

أقفلت الباب وجلست أنتظر لا أدري ما أنتظره، دسست نفسي في السرير وتدثرت تمامًا بالأغطية، نمت وأنا أحلم بعودتهم. استيقظت والظلام مخيم. لم أكن جائعًا، لكني أكلت قطعة صغيرة من الخبز وشربت الشاي ووقفت في الشرفة أنظر إلى المدينة، الأنوار مطفأة، نُباح كلاب يأتي من بعيد، وعراك بعض القطط أسفل العمارة، والتماعات تبدو في الأفق بين حين وآخر، أما كان من الأفضل أن أذهب معهم؟ ماذا سأفعل بالكتب واللعب، ها هي معي ولا رغبة لي في قراءة أو لعب، حتى جاك أطلقوا سراحه قبل أن يغادروا ولا أدري أين ذهب، اختنقت بالدموع وبدأت أبكي.

عدت إلى السرير وحاولت النوم، ويبدو أني نمت إذ استيقظت فجأة على صوت انفجارات وتكسر زجاج النوافذ، قفزت فزعًا لا أدري أين أتجه، وجدت نفسي أهبط سلم الخدم بسرعة في الظلام حتى أني تعثرت ووقعت، صرخت وأنا

أتكوم عند بسطة السلم، نهضت أتحسس "الدرابزين" أنزل ببطء لأدخل شقتنا وأستلقي على سريري، كان سرير أخي المجاور فارغًا، حسست عليه بيدي وعادت عيناي تغرورقان بالدموع والقصف يشتد كأنه يتقصد بيتنا.

حينما انقطع صوت القذائف والرصاص خرجت من غرفة النوم إلى الصالة، لاحظت أن قنبلة قد سقطت في الحديقة الصغيرة أمام بيتنا، تقصفت بعض الأغصان وتكسر زجاج النوافذ المطلة عليها، تمتمت إنهم مصرون على قتلي، لو دخلوا الآن فسيفتشون الطابق الأرضي أولًا، فلأصعد إلى الطابق الثالث، حملت نفسي وعدت ثانية إلى الشقة العليا.

ضوء الفجر يتسرب من النوافذ خجلًا، قبل شروق الشمس سمعت ضجة وصوت عربات، ومن الشرفة رأيت عربة إطفاء فوقها بعض المناضلين بأسلحتهم القديمة، تتبعها عربتان تحملان بعض الرجال، شجعني ذلك، فأفرغت الماء من "الجلن" في طشت، وتوجهت إلى الحدائق لأملأه، استغرق وقتا طويلا ليمتلئ، فقد كانت المياه ضعيفة جدا.

نزلت الشارع ثانية وتوجهت إلى دكان الحاج حسن، لقد نهب معظم ما فيه، حملت بعض الشمع والكبريت وعلبة من زيت الزيتون وملء كيس ورقي من الدقيق من شوال مبقور وعدت مسرعًا إلى البيت مقررًا ألا أخرج حتى يعود الأهل بعد أربعة أيام. سجلت كل ما أخذته من دكان الحاج حسن في ورقة حتى نعطيه ثمنها حين يعود.

لكني قضيت في البيت خمسة عشر يوما لم أخرج إلا مرة واحدة بحثًا عن الماء. كان الخبز هو المشكلة، أعرف أنه يصنع من الدقيق لكن كيف؟ أعجن الدقيق بالماء وأضعه على

قطعة من الصاج فوق الوابور، آكل والدموع تنهمر من عيني فالخبز لا ينتفخ أبدا ويظل ملتصقا ببعضه وتحترق أجزاء منه وأجزاء تبقى عجينًا كما هي، وحتى حينما حاولت الطبخ مقلدًا أمي وضعت البامية والبندورة والسمن والثوم في حلة على النار دون لحم، وحينها اعتقدت أنها نضجت ذقتها ونهنهت بالبكاء وألقيتها في دورة المياه.

لم يمر يوم دون قصف أو ضرب رصاص وأصوات مدافع من كل الأشكال، لكنه لم يقترب من بيتنا، قرأت كل الكتب التي وجدتها في الشقة، كتبي وكتب سمير ووالده وكتب والدي جميعها، بعضها فهمته وبعضها لم أفهمه، كان من بينها شموس المعارف الكبرى، حاولت أن أصنع طاقية الإخفاء كما هو مبين فيه، بقراءة عدد من سور القرآن آلاف المرات والمكوث في الظلمة والاكتفاء بطعام من الخبز وزيت الزيتون، لكن كل محاولاتي فشلت، ما شجعني وأعجبني كتاب وجدته في مكتبة والد سمير في جزأين اسمه روبنسن كروزو مطبوع في بيروت ومن ترجمة البستاني، تخيلت نفسي مثله وأعانني ذلك على الحياة. وتزايد قلقي في الأسبوع الثاني حينما لم ترجع الأسرة وازدادت المدينة فراغا ووحشة، لا أجد أحدًا أكلمه أو أستفسر منه عما يجري في الدنيا، لا جرائد ولا مصدر أخبار، وقلت ربما يعودون بعد انتهاء الحرب، في اليومين الأخيرين من مكوثي في البيت، توقف القصف تماما وسيطر على المدينة هدوء مخيف، سكون مطبق، أقف في الشرفة أنظر إلى السكون لا شيء يتحرك سوى قمم أشجار النخيل في شارع الملك فيصل. وفجأة يتدمر كل هذا السكون بأصوات مصفحات وتهليل يأتي من الشوارع البعيدة ويقترب رويدًا رويدًا من شارع الملك فيصل، دخل اليهود المدينة فالأصوات غير عربية، مرّت عربات عليها

فتيات جميلات هتفن بالعربية بعد أناشيد عبرية: نحن بنات الهاجانا فين العرب تلقانا؟ شيء ما عصر قلبي في صدري، وتصاعد الغضب داخلي على اليهود والعرب وعلى نفسي.

كانوا يطلقون الرصاص في الفضاء ويغنون، ومن يسير راجلًا يرقص ويطلق النار على المحلات التجارية، يقتحمونها ويسرقونها. ماذا لو اقتحموا البيوت؟ ماذا يفعلون بي؟ لو لم يغادر الناس المدينة ماذا كان سيحدث؟ هل كانوا سيقتلون كل الناس؟

دخلوا المدينة بزفّة كبيرة، طافوا بشوارعها، خربوا ونهبوا واطمأنوا، ثم عاد الهدوء، الهدوء المخيف، نمت ليلتها على وجهي من الغضب والحزن، فكرت ماذا لو لم يبق عربي واحد في المدينة سواي؟ سيقتلني اليهود، وحتى لو تركوني أعيش ماذا سأفعل؟ هل أعمل أجيرًا عندهم؟ أيسمحون لي بفتح دكان أبي؟ دكان أبي! ربما نهبوه هو الآخر، كيف سيكون طعم الحياة معهم؟ البيع والشراء والتعامل، وبكيت، بللت مخدتي بالدموع قبل أن أنام.

استيقظت على دقّ وخبط أسفل العمارة، ارتجفت، تسحبت إلى الشرفة وتلصصت، عربة يجرها حصان تقف أمام البيت، أناس ينقلون إليها أثاث بيتنا، نزلت مسرعا من الباب الرئيسي للشقة وكنت قد فتحته بعد أن كسرت القفل الخارجي قبل أيام، نزلت صارخا فيهم: ماذا تفعلون؟

فوجئت بوجود خالي إبراهيم معهم، وقد بدت على وجهه الدهشة الشديدة لرؤيتي. قال: أنت هنا! لماذا لم تسافر معهم؟

قلت ببرود: سافروا بدوني!

قال بحيرة: كيف يهاجرون ويتركونك؟

صمت قليلًا ثم أضاف: ليس لك أن تمكث وحدك هنا.. تعال لتقيم عندنا.

قلت وأنا أرسم تكشيرة على وجهي: لماذا تأخذ عفشنا؟

قال: فكرت أن أحتفظ به عندنا.. أفضل من أن يأخذه اليهود.

قلت: لكنه عفشنا يا خالي!.. غدًا أو بعد غد أو الشهر القادم سيعودون.. أبي وأمي وأخوتي.. هل يجدون الشقة خالية؟!

قال مربتًا على كتفي مبتسمًا ابتسامة غريبة: لن يعودوا يا بني.. الدنيا تغيرت.

كل من خرج لن يعود.. أقفلت الحدود وأعلنت الحرب وقامت الدولة.. وهذا العفش لو تركته هنا سيستولي عليه اليهود.

- وهل انتصر اليهود؟

لم يرد، أضفت: أنا يا خالي لم أهاجر ولا أريدك أن تأخذ العفش فأسرتي ستعود قريبًا.

هزّ رأسه وقال: ندعو الله أن ينتصر العرب.

تأمّلني قليلًا وابتسم وهو يقول: وماذا تنوي أن تفعل بكل هذا الأثاث وأنت وحدك؟

قلت: البيت بيتنا وكل ما فيه لي ولأسرتي وليس لك الحق في أن تأخذه.

اتجهت إلى صاحب العربة الذي توقف هو وتابعه عن نقل الأثاث وقلت له: أعد كل هذا الأثاث إلى مكانه في الداخل وانصرف.

ونظرت إلى خالي قائلًا: إذا وجدت شيئًا ناقصًا فسأحملك المسؤولية يا خالي.

ابتسم خالي وقال بهدوء: أنت فهمتني غلط يا أحمد. كنت أفكر في مصلحتكم. أما إذا كان هذا رأيك فلا مانع. أعد هذه الأشياء إلى الداخل، سيأتي يوم ترجوني فيه أن أخلصك منها.

قلت: أرجو ألا يأتي هذا اليوم.

قال وهو يقربني إليه ويحتضنني: لا تزعل مني، ظننت أنه لا يوجد أحد منكم هنا وخفت أن تضيع حاجاتكم. على كل حال قل لي ماذا تنوي أن تفعل؟ ألا تأتي لتقيم معنا؟

كدت أبكي لتربيته على كتفي واحتضانه لي، قلت متمالكًا نفسي: لا أدري. أشار للعربة أن تسير بعد أن أعطى الرجل أجرته، أمسكني من يدي وأرادني أن أسير معه. قلت: سأمكث هنا يا خالي. أنا أقيم في شقة الطابق الثالث. أنت تعرف أن البناية كلها لنا. تفضل اصعد معي إذا شئت.

قال مبتسما: وتقدم لي الشاي؟

قلت: مرحبا بك.

أقفلت باب شقتنا في الطابق الأرضي من الداخل، ودققته بخشبة ومسامير وكانوا قد كسروه، خرجت من باب المطبخ، وعدت لنصعد سويا إلى الطابق الثالث.

أعددت الشاي وجلسنا في الصالون نرتشفه دون أن نتبادل الكلام. كان يزورنا مساء كل خميس، يأتي ومعه قراطيس من البزر وفستق العبيد، يسهر مع أبي يتحدثان في أمور كثيرة وأحيانا يتعشى عندنا، فهو ابن عم لأبي أيضا، كانت العائلة تتحلق حوله. أمي وأخي وأختي وكنت لا أجلس معهم في أغلب الأحيان، كنت أراه جاف الطبع ليس من السهل أن يضحك. لكنه رجل "حقاني" كما كانت تقول أمي.

قال بعد فترة: اليهود دخلوا المدينة. احتلوها. أمور كثيرة ستتغير. ألم تفكر ماذا تريد أن تفعل؟

- لم أفكر يا خالي.
- كيف تعيش هنا وحدك. كيف تأكل وتشرب وتلبس. من يعد لك الطعام؟
- أنا أفعل. لم أعد صغيرًا..
- وإلى متى ستظل على هذه الحالة؟
- لا أدري. أنت مثلا يا خالي ماذا تفعل غير الدوران على بيوت الأقارب وتنظيفها من الأثاث الذي تحتويه؟

قال بحدة: لا تكلمني بهذه الطريقة. ماذا جرى لك؟ أنت لا تفهم الظروف تمامًا ولا تعرف ماذا يجري في البلد. حينما تكبر قليلا ستفهم وتعذرني.

قلت: جائز.

قال وهو ينهض: بالتأكيد. المهم أن تفكر في مستقبلك.

سألته بود حتى لا يظل غاضبًا مني: خالي.. لماذا لم تهاجر مثل الآخرين؟

تنهد وقال: وإلى أين سأذهب؟ هل أترك كل شيء وأرحل؟ كل رصيدي من النقود وضعته ثمنا لأدوية في الصيدلية.. لكن ليس هذا هو المهم.. فالأفضل أن نبقى هنا، أخطأ والدك. نصحته ألا يغادر فلم يستمع لي.

كانت أمي تقول إن زوجته ليست على وفاق مع عائلتنا، أقصد مع أشقائه وشقيقاته ووالدته، ولا تحب الاختلاط بهم، ولذا كان مبتعدًا عن العائلة، ربما هذا هو السبب الحقيقي الذي جعله لا يرافق العائلة في هجرتها، لكنه كان يستطيع أن يهاجر وحده لو أراد، قلت في نفسي خيرا فعلت بعدم هجرتك يا خالي، ورغم أني تضايقت منه لمحاولته أخذ عفشنا، لكنه أراحني بوجوده وعائلته وبعث في نفسي بعض الاطمئنان.

قال: لماذا لا تأتي وتعيش معنا. مع أولادي في البيت؟

قلت: أحب أن أعيش وحدي حتى تعود أسرتي.

ورغم أن فكرة الإقامة عندهم مرت بخاطري مرات عديدة في اللحظات السابقة، فإن كبريائي منعني أن أوافق، ولو أصر لوافقت، لكنه قال:

- كما تريد. لا أحب أن أضغط عليك. والآن تعال معي لتتغذى عندنا اليوم. سيفرح الأولاد كثيرًا بوجودك.

حاولت أن أعتذر لكنه صمم على دعوته، وكانت لي رغبة في الذهاب. نزلنا معا، يسكن في حي أم العيلة القريب من النزهة، المسافة ليست بعيدة، أعرف بيتهم فقد زرتهم مرات عديدة، بل وطُهرنا معا في يوم واحد أنا وأخي وأولاده خليل

وزكريا حين كنا نقيم في البلدة القديمة. لم نسر في الشوارع الرئيسية، بل سلكنا الدروب الخلفية اتقاء الاصطدام باليهود.

سرت كالتائه، هل هذه يافا التي أعرفها؟ المدينة الضاحكة أبدا، عروس الشاطئ، تبدو اليوم واجمة ساكنة، البؤس والفوضى يغلفانها، والقمامة تملأ أحياءها وشوارعها، والخراب ينتشر في أرجائها، وناسها بعيدون عنها، قابلنا بعض العرب، حياهم خالي بصوت واهن، كانوا يسيرون منكسي الرؤوس محنيي الظهور والوجوم ينطبع على وجوههم.

سألت: ألم تأتِ نجدة لإنقاذ المدينة؟

تنهد وقال وكأنه ينتظر أن أسأله: لقد تخلى عنا الجميع. في مارس الماضي أرسلت المدينة عدة وفود من رئيس البلدية وأعضاء اللجنة القومية إلى جميع البلاد العربية مستصرخة مستغيثة لما لأهمية يافا وما يترتب على سقوطها من نتائج.. لكن هذه الوفود عادت كما ذهبت لا تحمل إلا الوعود الكاذبة والأمنيات.

سرحت عينا خالي، بدا الكبر على وجهه، لاحظت ذلك حين حدقت فيه، أشفقت عليه، هم بالكلام لكنه توقف.

قلت مترددًا: هل كنت مع المناضلين يا خالي؟

انتفض قائلا: بالطبع يا بني. مثلما كان والدك معهم وأخوالك وكل الناس.

صمت، ثم أضاف: لم يتقاعس أحد في الدفاع عن المدينة رغم قلة السلاح والذخيرة لكن.. وعض على شفته السفلى وسكت.

قلت: ولكن ماذا؟

قال: حينما نصل أحكي لك. هيا أسرع قليلا. فليس من الحكمة التلكؤ في السير.

انحرف بي يمينا، كنت أظنه يبتعد عن أحد الدروب الخطرة، لكنه واصل سيره في طريق خاطئ، قلت في نفسي هل يعقل أن يكون قد نسي بيته؟

نبهته قائلا: خالي نسير في طريق خاطئ.

ابتسم: هل تعرف البيت أكثر مني؟!

- لا أقصد. لكن هذا ليس طريق أم العيلة.
- لن تذهب إلى أم العيلة. نقيم الآن في بيت والدي. في فيلته في كرم التوت.

صحت: في بيت جدي؟!

- هل تريدني أن أترك هذا القصر لينعم به اليهود وأظل أقطن شقتي في أم العيلة!

لا أحب هذا البيت- القصر منذ ذلك اليوم، يوم العيد قبل ثلاث سنوات من ذلك التاريخ، ذهبت مبكرًا إلى هناك لأعيد على جدي وجدتي وخالاتي، سعيدًا بالملابس الجديدة، دققت اليد النحاسية بقوة حتى يسمعوا، فالباب تفصله عن المبنى حديقة كبيرة مملوءة بأشجار الفاكهة، ولم أستطع أن أصل بيدي إلى زر الجرس لأضغط عليه. فتح الباب وفوجئت بجدي نفسه يقف في مواجهتي، ابتسمت وهممت بأن آخذ يده لأقبلها وأقول له كل سنة وأنت طيب، لكني أحسست أن الدنيا قد غامت أمام عيني وأني رُفعت عن الأرض بقوة مجهولة، ركبني الخوف فصرخت،

وجدي يرفعني من شعري الطويل ويخبطني بالأرض صائحًا: هو أنت.. هو أنت.

ثم ألقاني على الأرض أمام الباب على بسطة السلم ذي الدرجات القليلة، وصراخي يملأ الحي. هرعت خالاتي وجدتي على صوت صراخي وعويلي، احتضنوني وحاولوا إدخالي إلى البيت، لكنني تملصت منهم وجريت إلى بيتنا باكيًا. حزنت أمي وغضب أبي، وعرفنا بعد ذلك أن جدي كان ينتظر رئيس البلدية وبعض الشخصيات الهامة وقد ظنهم، حين دققت الباب، أنهم قد حضروا، فنزل ليفتح بنفسه مانعًا الخدم أو إحدى خالاتي من فتح الباب، وفوجئ بي وكان ما كان. من يومها أكره الذهاب إلى بيتهم وأكره جدي أيضًا.

دخلنا البيت كالمتلصصين، أولاده يجلسون في ركن صامتين. أكبرهم في مثل سني، والآخر أصغر مني بسنتين، أما البنت فأصغرهم.

أحاطوني فرحين، وشهقت زوجته ضاربة على صدرها قائلة: أين وجدته؟ كيف حالك يا بني؟ مسحت بيدها على شعري، وأحضرت لي برتقالة، قشرتها وبدأت آكلها والأولاد يحيطونني.

قال خالي: لقد نسوه في عجلتهم وربكتهم. هاجروا ونسوه.

عادت تضرب صدرها براحة يدها وتقول: الله يساعد أمك. "إيش عامله هالقيت؟".

فوجئت بأم عبده تدخل علينا، وكانت أسعد مفاجأة لي في الأيام الأخيرة. شهقت، ووضعت الصينية التي تحملها على المائدة واحتضنتني باكية، بكيْتُ بشدة حتى اغرورقت عيناي

بالدموع. لازمتنا فترة طويلة ولم تنقطع عنا إلا في الأسابيع الأخيرة لسبب لا أعرفه وكلما سألت والدتي عنها قالت إن زوجها يمنعها من المجيء بسبب مشاغل كثيرة لديهم. أحبها من كل قلبي وأستريح لها، كانت تهيئ لي كل شيء، إفطاري وكتبي وملابسي وتوصلني أحيانا إلى المدرسة.

قالت من بين دموعها ونهنهاتها: قالوا إنكم هاجرتم.

قلت: كلهم هاجروا عداي.

قالت: لقد مات أبو عبده. ألا تدري؟

لم أقل شيئًا.

أضافت: وعبده سافر منذ فترة ولا أعلم عنه شيئا. فكرت أن ألحق بكم إلى غزة لكن همتي قعدت بي.

قلت: أفضل أنك لم تغادري.

قالت: جئت أقعد يومين عند خالك إبراهيم ربنا يخليه. هل ستقيم هنا يا بني؟

نظرت إليها، وددت لو قلت لها أريدها أن تأتي لتعيش معي لكني قلت:

- لا يا أم عبده. سأظل أقيم في شقتنا.

ويبدو أنها فهمت أو أدركت بغريزتها ما أود قوله، إذ قالت: ما دمت تقيم وحدك ولا أحد يخدمك فسآتي لأقيم معك فأنت مثل ابني وخالك سيسر لذلك.

قال خالي: طبعا.. طبعا. على الأقل أكون أكثر اطمئنانًا عليه ما دام يرفض أن يقيم معنا. وإذا احتجت شيئا اتصلي بي. ربما أفتح الصيدلية قريبا ومن المؤكد أن الأمور ستعود إلى مجراها. آنذاك نُفكر في مستقبل أحمد والأولاد والمدارس.

لم تخطر المدرسة ببالي، وربما من دوافع سروري أن الأحداث الأخيرة أقفلت المدارس، وعلى العموم حتى لو ظلت مفتوحة فإجازة الصيف ستبدأ، لو ألحقني بمدرسة لن أعارض، قلت: هل سندرس في مدرسة يهودية يا خالي؟

- إن العرب ليسوا أقلية، ستكون هناك مدارس عربية. وأضاف بحسرة: رغم أن عشرات الآلاف قد غادروا المدينة.
- قلت لي إنك ستحكي لي عما حدث.

تناول ورقة وقلم وبدأ يرسم مخططًا لمدينة يافا وأحيائها كاتبا اسم كل حي، جاء أبناؤه والتفوا حوله. أنهى الرسم ورفعه بيده ليريه لنا جميعا قالت ابنته سعاد: أين نسكن نحن يا أبي؟

وضع علامة على الرسم بالرصاص وقال: هنا يا بنتي.

وتنهد وبدأ يسرد قصة الأحداث الأخيرة.

في تلك الغرفة التي في الصدر، كان يجلس جدي على حشية مرتفعة، أمامه شيشته يسحب منها الأنفاس، وأظل أنظر إلى فقاقيع الماء التي "تبقبق" في زجاجتها، خالتي سميحة جالسة عند قدميه بيدها كتاب تقرأ له فيه وهو ينصت، يهز برأسه ويشد الأنفاس، وكان صوت قراءتها يبعث في نفسي إحساسًا بالخدر، يبعثني إلى عالم النوم ولا أستيقظ إلا على والدي أو والدتي أو إحدى خالاتي وهي تحملني لتنقلني إلى السرير أو إلى منزلنا.

كان خالي إبراهيم يتحدث عن محاولة لنسف تل أبيب عن طريق شبكة المجاري التي تصب بالقرب من حي المنشية، وعن شخص يدعى عيسى الكردي وعن فشل الفكرة بسبب نقص المتفجرات والإمدادات.

وعادت أفكاري لتسرح عند عائلتي، ترى هل افتقدوني؟ هل حزنوا لذلك؟ ربما بكت أمي وندم أبي لأنه لطمني، ترى ماذا يفعلون الآن؟

- لم يتوقف أولاد الكلب عن إطلاق الصواريخ والقنابل وكانت من جنس عجيب إذا وقعت على الأرض لا تقف وإنما تجري عدة أمتار حتى تصادف حاجزًا يحجزها، وفي أثناء سيرها دوي كدوي الرعد وفرقعة كفرقعة الحديد وأكثر.. يا لطيف يا لطيف.

ابتسمنا، بينما قالت زوجة خالي: تعالوا لتتغدوا فالأكل جاهز.

وأنا آكل سامحت خالي لمحاولته أخذ أثاث بيتنا وقلت:

- خالي حينما تفتح الصيدلية أريد أن أعمل معك.

قال: هذا يسعدني. إن شاء الله تعود الأمور إلى طبيعتها قريبًا.

بعد الغداء شربنا الشاي واسترحنا قليلا، ثم استأذنت خالي في الانصراف.

قال خالي: ألا تبيت عندنا الليلة وغدا أعود معك لأوصلك؟

قلت: أعرف الطريق يا خالي، والوقت ما زال مبكرًا ثم إن أم عبده معي. هيا يا أم عبده.

قالت زوجته: يا بني ابقَ الليلة عندنا.

شكرتها ورفضت مرددًا: هيا يا أم عبده.

قالت أم عبده: حاضر، ربنا يستر.

عادت زوجة خالي إلى القول: لا تتركيه ينزل إلى الشارع يا أم عبده. واسلكا الطرق الخلفية في سيركما.

قالت أم عبده: حاضر ربنا يستر.

وخرجنا.

أخدت أم عبده تنظر إلى الصور التي علقتها على الجدران، صور أبي وأمي وأخوتي وأخوالي، وتبكي.

قلت: لماذا تبكين يا أم عبده؟

قالت: أبكي على الأيام الماضية وعلى الأيام القادمة التي ستكون أمرّ من المرّ يا بني.

قلت: ستنامين في تلك الغرفة بينما سأنام هنا. دعيني أنام ولا توقظيني حتى أستيقظ بنفسي فليس هناك مدرسة ولا عمل.

نهضت بهمّة، ترتّب الأسرة، وتنفض الستائر، وتغسل الأواني، وتعيد الشقة إلى شكلها الطبيعي إلى حين أنهت كل شيء، جاءت مبتسمة تسألني: ماذا أعد لك على العشاء؟

- أي شيء يا أم عبده... لكني لست جائعا الآن.

قالت: هناك أرز وعدس. سأعمل لك "مجدرة" تأكل أصابعك وراءها.

دخلت المطبخ لتعد الطعام، وبدأت أقلب في الكتب المكومة على المكتب قرأتها كلها، وهي قليلة العدد على كل حال. قلت في نفسي غدًا أنزل الشارع أبحث عن مكتبة كسر بابها أحضر منها عددًا من الكتب، ربما مكتبة الطاهر القريبة في شارع جمال باشا، أو حتى مكتبة مدرسة العامرية الابتدائية التي أذهب إليها أو العامرية الثانوية وكلتاهما على بعد خطوات من البيت، ومكتبة كل منهما عامرة بالكتب. طرأ على ذهني أنه ربما توجد بعض الكتب في الشقق الأخرى، لماذا لا أبحث، أخذت القدوم وقلت لأم عبده: سأصعد إلى الشقة التي فوقنا لأحضر كتابًا أريده.

صعدت سلم الخدم، كسرت باب المطبخ ودخلت الشقة، كان يقطنها رجل وزوجته بلا أولاد، رجل مهيب، طويل القامة، أبيض الشعر، حسن الهندام يلبس نظارة وله شوارب كبيرة، كنت أخافه وأحترمه، صورته مع زوجته معلقة على الجدار، في كوميدينو بجوار السرير كانت هناك نسخة من المصحف بحروف كبيرة، ومجلدات ألف ليلة وليلة الأربعة، ومجلدات صغيرة الحجم من كتاب فقه السنة، أخذت مجلدات ألف ليلة وليلة ونزلت مسرعًا لأستلقي على السرير وأبدأ القراءة في المجلد الأول، يأتيني صوت الوابور من المطبخ حيث أم عبده تعد الطعام فيعطيني إحساسا بالأمان والاطمئنان، فأحاول الاندماج في الحكاية التي أقرؤها وألا أفكر فيما يحدث حولي.

* * *

انتشله من تيار تدفق الذكريات، صوت شجار وصراخ في الخارج، قفز قلقًا، ربما يتشاجر أحد معهم وهم قادمون، هبط السلالم مسرعًا، لم يسبق أن تعرض لهم أحد، ألقى نظرة على الساعة قبل أن يفتح الباب، كانت تقترب من منتصف الليل، ليسوا هم، فلم يعتادوا الحضور في هذا الوقت المتأخر، فتح الباب وجرى ليكون في موقع الشجار.

وجد مصطفى (الملقب بالنص) ابن الشيخ أبو العينين مع اثنين آخرين، يضربون "شلاطيف" أحد شباب الحي الصعاليك، وهو يصرخ وسؤال النص معلق فوق رأسه «من أين أتيت بها؟»، توقفوا عن الضرب حينما تقدم نحوهم، بينما ظل النص ممسكا به من ياقة قميصه، صاح الصعلوك لدى رؤيته: الحقني يا أستاذ أحمد.

قال النص: أهلا يا أخ أحمد. أمسكت بهذا الكلب يدخن الحشيش مع اثنين آخرين قرب سور المدرسة وأريد أن أعرف من الذي باعه هذا الحشيش.

صاح شلاطيف: في كل مكان يباع الحشيش وأنت تعرف ذلك!

قال النص بغضب: لا ترفع صوتك.. هل تظن أن الأستاذ أحمد سيحميك! سأشرحك إن لم تقل.

وبسرعة ضربه في وجهه ضربتين، لم يتبين إلا بعد لحظات أن مصطفى يحمل في يده موسى حلاقة، وعلى الضوء الخفيف الذي ينتشر في الزقاق، لمح الدم ينبثق من وجه الشاب بغزارة، اقشعر بدنه، تمالك نفسه وقال: يكفي هذا يا مصطفى. سيتكلم.

قال شلاطيف بعناد: أنا حر وليس لك أن تتدخل في شؤوني. أنت لست الحكومة.

وانهالت فوق الشاب الصفعات والركلات واللكمات ومصطفى يقول:

هل الحرية يا كلب أن تنشر الحشيش بين الشباب؟! لا تظن أن أحدا يمنعنا من قتلك لو لم تقل من أين اشتريته. وسأعرفك من الحكومة في هذا الحي.

وضع الموسى على رقبته بينما الاثنان الآخران يقيدان يديه..

لم يستطع أن يتدخل، رغم أن مصطفى يعمل عنده في الصيدلية ورغم أنه يعرفه منذ مولده، إنه يرتجف من الخوف وكأنه هو هذا الشاب الصعلوك، وبدا الموقف وكأنه يؤيد مصطفى فيما يفعله، يكره العنف ويرتعد قرفا من رؤية الدم المتدفق حتى من حيوان أو طائر، لم يكن هكذا من قبل، لم يعد هو نفسه، منذ متى انتابه هذا التغيير؟ حينما كان صغيرًا كان عنيدًا وعنيفًا وتيارات التمرد تجتاحه تود أن تجرف كل شيء في طريقها، وظل يكبتها حتى أصبحت دملًا يؤجل تفجيره يومًا بعد يوم، وسنة بعد سنة، حتى تحجر وأضحى بؤرة تبث السم داخل جسمه كله، وتغيره إلى إنسان ينفر من العنف ويكره منظر الدم ويهرب من المواجهة، حتى غدا مستسلمًا لتيار الحياة يسحبه معه كما تسحب النعاج إلى المسلخ، يعجب بمصطفى وأمثاله ويرتعش هلعًا مما يقومون به، فيتودد إليهم تمزقه رغباته الكامنة داخله، رغبة بمشاركتهم أعمالهم ويقعده عجزه الذي يسيطر عليه كقوة شريرة تقيده ولا يستطيع منها فكاكًا.

حين انغرست حافة الموسى في رقبة الشاب وانبثقت أولى قطرات الدم، نطق بكلمة واحدة: المكسح.

قال النص: صاحب الكشك عند أول الحارة؟ هز الشاب رأسه.

تركه النص بدفعة ألقته على الأرض قائلا: لو سمعت. أقول لو سمعت أو رأيت أنك تدخن الحشيش سيكون ذلك آخر يوم في عمرك.

والتفت ليقول: لا مؤاخذة يا أخ أحمد. أخشى أن يتفشى المخدر بين شبابنا فتسقط الورقة الأخيرة التي نتلفع بها.

هز رأسه وقال: معك حق. معك حق.

- ألا تأتي قليلا عندنا؟
- لقد تأخرت. لا بد أن أعود إلى البيت.
- ألم يحضر الزبائن اليوم؟

ابتسم: لا يفوتك شيء يا مصطفى!

قال: أنا لا ألعب!

اختفى شلاطيف في ظلام الأزقة، يمسح جراحه، صافح مصطفى وصحبه، واستدار لينزل السلالم، لم تفتح نافذة لم يسمع صوت لأحد، وكأن المكان مهجور. خرج من الحي، واتجه نحو سيارته.

* * *

يحيرني هذا النص بتصرفاته، لا أفهمه، لكني أحبه، فهو خدوم لأقصى الحدود، هناك أمور غريبة تحيط به لا أعلمها، رغم علمه بالكثير من نشاطي. تعرضت الصيدلية للسطو عليها أكثر من مرة بكسر الأقفال، آخر مرة ألقى القبض على ثلاثة شبان من اليهود، حينما عرضوهم علينا، تعرفت عليهم، بعتهم مخدرًا ذات يوم، لن يضيرني لو شهدوا أنهم اشتروه من صيدليتنا، أستطيع اتهامهم بالكذب أو بالرغبة في الانتقام، لكني تنازلت عن القضية وساعدت في إطلاق سراحهم، قابلتهم بعد خروجهم وسألتهم لماذا حاولوا سرقتنا، فادعوا بأن قلة النقود والحاجة إلى المخدر كانت دافعهم.

قلت: يمكنكم الحصول على المخدر بسهولة لو استطعتم إحضار بعض قطع السلاح.

قال أحدهم: وهل تشتريه منا لو سرقناه؟

قلت: أنا لا أشتري ولكن أدلكم على من يشتريه.

كنت أعرف أنه يتم استدعاؤهم للجيش بين حين وآخر، وقلت ربما يتمكنون من سرقة بعض السلاح. بعد ذلك، أدركت كم كنت مخطئًا في هذا الأمر، فأنا لم أدخل في عملية شراء سلاح بعد عملية «تانامي»، أولًا بسبب الخوف وخشيتي أن تكتشف العملية، وثانيا لعقوبتها الشديدة، فهم لا يتساهلون أبدًا في هذا الأمر، قد تجد من ترشيه من أجل المخدرات أو سرقات عادية، أما السلاح فهناك رعب يشملهم جميعًا من فكرة تسربه إلى أيدي العرب، فهم يعيشون في بلد سرقوها ويخافون أن يتمكن أصحابها من استردادها فيفقدون كل شيء.

تمكنوا من سرقة بعض المسدسات ورشاشين على فترات متباعدة، وحينما ألقي القبض على عدد من الجنود أثناء سرقتهم للسلاح من مخازن الجيش، عشت أياما في قلق مفزع

وتوتر أعصاب دائم خوف أن يكون أحدهم من بين المقبوض عليهم، وثبت من التحقيقات أنها ليست المرة الأولى التي تسرق فيها أسلحة، فقد بيعت رشاشات عوزي وبنادق وقنابل إلى العرب في قرى الجليل عدة مرات، كنت أخاف أن يعترف الجنود أنّي محرضهم وأنهم باعوا السلاح لي، لكن الله سلّم، ولم يعتقل أحد منهم، وسبب تفكيري بشراء سلاح، أنه بعد عملية تانامي بأربع سنوات فوجئت بفتاة جميلة تلبس الجينز تدخل الصيدلية، اقتربت مني قائلة: أنت أحمد الشواهدي؟

هززت رأسي قائلا: أي خدمة؟

فتحت حقيبة تعلقها بكتفها. أخرجت مظروفا أبيض منتفخا، قالت:

- أنا من طرف الأخ الكبير.

قلت وقلبي يدق بسرعة: أي أخ كبير؟

قالت بهمس: صديق نزار. هل نسيت؟

ترددت قبل أن أسألها: ما أخبار نزار؟

قالت: بخير.

وربتت على يدي وهي تضع الظرف أمامي.

قلت: أي خدمة أؤديها إليك؟

- شكرًا. أنا قادمة للاطمئنان ولتسليمك هذا المظروف بقية دين لك. وإذا استطعت الحصول على دواء كالسابق أرسله على العنوان نفسه وشكرنا بلا حدود.

أخذت المظروف وقلت لها: ألا تنتظرين حتى نتغدى سويًا؟

- لا أستطيع. فنحن في جولة سياحية في يافا وتل أبيب وعلينا العودة إلى الضفة قبل حلول المساء.

لقد دفعوا بسخاء ثمن السلاح الذي سبق أن اشتريته لهم، ولم أجرؤ بعد ذلك على مجرد التفكير في البحث أو طلب شراء سلاح، حتى طلبت من الشبان الثلاثة وبعد خمس سنوات من زيارة الفتاة لي.

ومع إجراءات الأمن المشددة، أقلع الشبان عن سرقة السلاح، وبدأوا محاولة ابتزاز دنيئة لي، لو لم أشتر منهم سلاحا لأبلغت عنهم شلومو، ولتصرف معهم بسهولة، لكني لم أستطع إبلاغ شلومو بالأمر، فأنا غير متأكد من رد فعله، ولا أعتقد أنه سيرحب بأن نتعامل بالسلاح وقد يودي بي تماما.

كان مصطفى قد بدأ العمل بالصيدلية بناء على طلب من والده شيخي أبو العينين وكان متواجدًا في اليوم الذي جاء فيه الشباب يطلبون مخدرًا ونقودًا صارحت النص يومها بكل شيء، فقال لي: دع الأمر لي وأرسلهم معي إلى البلدة القديمة بحجة تسليمهم المخدر.

وفعلا، اصطحبهم ذات مساء إلى البلدة القديمة، وظللت قلقا حتى صباح اليوم التالي، حين قال لي: لن يزعجوك بعد اليوم.

قلت: ماذا فعلت بهم؟

قال: لا تسألني كثيرًا. كل ما أستطيع قوله إنهم يرقدون

الآن في قاع بئر مهجورة وفوقهم عدة «أشولة» من الجير الحي.

لم أسأله كيف نفذ أو بمساعدة من واكتفيت بالنتيجة، ونظرت إليه بإعجاب وبعين ملؤها الإكبار والخوف أيضًا.

أذكر يوم مولده، كان يوم سبت وكانت إجازة رسمية، ذهبت لأزور الشيخ أبو العينين شيخي في الكتاب، وزوجته مبروكة، من أغرب الأمور أن تحمل زوجته وتلد وهي امرأة قد جاوزت الخمسين وقتها، كانت تحلم أن يكون لها ولد، ولم ترزق به خلال ثلاثين سنة من زواجها، لكنها حملت لسبب لم يستطع تفسيره حتى الأطباء، كانت تخشى أن يكون الحمل كاذبًا، لكنه كان حقيقيًا، وحين ولدته جاء بطول لا يتجاوز خمسة عشر سنتيمترًا، كان كاللعبة الصغيرة، تحمله بيد واحدة وتريني إياه بعينيه الخضراوين كعيني والده، ولونه الأحمر كلعبة البلاستيك، باركت لهما، كنت أخشى ألا يعيش فتكون صدمتهما كبيرة وهما اللذان انتظراه العمر كله. كنت أخاف زيارتهم حتى لا أسمع ما يحزنني عن هذا الطفل، أو أرى ملامح الفرح الجنوني التي ارتسمت على وجه أمه عند قدومه تتلاشى ليحل محلها الحزن بل الموت، فلو مات هذا الولد فستموت أمه وراءه، لكن الله سبحانه الذي وهبها إياه على الكبر أراد له أن يعيش ويتعلم على يدي والده الشيخ الورع الكثير، فقد غرس فيه ما تاقت نفس الشيخ إلى عمله وعجزت عنه، كان بالإضافة إلى صغر حجمه، يبدو وهو في العاشرة من عمره كأنه في الخامسة، شديد الذكاء، يحفظ أجزاء عدة من القرآن الكريم، وكثيرًا من الشعر، لكنه كان شيطانًا من شياطين الإنس «لعفرتته»، حتى أطلق عليه الأولاد في الحي لقب «النص».

* * *

كانت زوجته نائمة، دخل السرير بعد أن غيّر ملابسه، انقباض يسيطر عليه سيحرمه من زيارة النوم السريعة، عرف ذلك منذ انقلب على جانبه أول مرة، ستظل حركته متوالية على الجانب الأيمن فالأيسر فالظهر لفترة طويلة. خطر في ذهنه أن يقوم من السرير، يقرأ في كتاب، لكنه استسلم لكسله وأفكاره.

لم أفقد الأمل في عودة الأهل، قلت قد يتسللون سرًا، قد يعودون من البحر كما عادت بعض الأسر، لا بد أن يجدوا وسيلة ما، بدأت المدينة تمتلئ بالأجانب، عائلات يهودية من رومانيا ويوغسلافيا والفجر والمغرب، توافدت على المدينة بالعشرات. تسكن العمارات الخالية التي تركها أصحابها وهاجروا، يملأون الشوارع، يزحمون المحلات، عجت المدينة بالحياة لكنها حياة غير التي عهدتها، كأني انتزعت لألقى في مدينة غير مدينتي، الصحف غير الصحف، الناس غير الناس، اللغة غير اللغة، عادت المياه تجري في الصنابير، والتيار الكهربي ليضيء المصابيح، والعربات الخاصة والعامة تجوب الشوارع، فتحت المحلات التجارية امتلأت الأسواق، ونحن لم نعد نحن.

وجاء الدور على بنايتنا، جاءت عائلة سكنت الدور الثاني وأخرى في الدور الرابع، وعائلة ثالثة سكنت الطابق الخامس. حرت كيف أمنعهم، لم أستطع ولا حتى خالي إبراهيم استطاع، البيت بيتنا وهو ملكي الآن، وهم ينكرون علي ذلك، قلبت كل أوراق أبي بحثا عما يثبت ملكيتنا للبيت، لم أجد شيئًا، وتأكد لي أنه أخذ كل الأوراق معه، قال خالي حتى لو وجدت الأوراق فلن يجدي ذلك، فالمسألة ليست قضية أوراق، وقالت أم عبده إنه يمكنني أن أجد نسخًا من عقود الملكية في دائرة الأملاك العقارية، هذا إذا بقيت الدائرة سليمة لم تحرق أو تنهب أو تنسف.

كل البيوت حولنا احتلها اليهود، الطابق الأرضي من عمارتنا لم يقربه أحد نقلت منه إلى الدور الثالث كل ما أمكنني حمله، لم أبق إلا الأثاث الثقيل الذي لم أستطع حمله أنا وأم عبده. قلت في نفسي: ليتني تركت خالي إبراهيم يأخذه ويتصرف به فلن أستطيع منع أحد من القدوم والسكن في البيت.

فوجئنا ذات يوم بمن يحاول فتح الباب علينا، جرت أم عبده لتفتح، وشهقت، عائلة يهودية ومعها مندوب دائرة الاستيعاب والهجرة كما قدم نفسه، ويريدون الاستيلاء على الشقة، تشاتمنا معهم، صرخت بهم أن العمارة كلها ملكي وأنهم احتلوا ثلاث شقق بالقوة وأن هذا ليس من حقهم، تجمع اليهود من ساكني الشقق الأخرى في العمارة يرطنون بلغات عجيبة وحاول بعضهم أن يجرني خارج الشقة، جريت إلى المطبخ لأحمل سكينا وأخرج لهم، ضحك مندوب دائرة الهجرة، أبعد المتجمهرين، ونزل مع العائلة التي قدم معها. قلت لأم عبده: سيعودون.

نظرت من الشرفة فرأيت العائلة تجلس على الرصيف، ومندوب دائرة الهجرة يشير إلى شقة الطابق الأرضي ورب العائلة يرفض.

بدأت أنفاسي تخرج من أنفي كثور جريح، وأم عبده تهدئني وأنا أفكر بكيفية صدهم والاحتفاظ بشقة في عمارتنا التي يبدو أنها ستضيع.

عاد مندوب الهجرة بعد قليل ومعه عربة مصفحة تابعة للشرطة، اقتادوني إلى مفوضية الشرطة، أقفلت الشقة بالقفل وطلبت من أم عبده أن تذهب لتخبر خالي إبراهيم بما حدث.

المفوضية مملوءة بجنودهم، لم يعد هناك شرطي عربي واحد، نظر نحوي شرطي منهم أو ضابط لست أدري فليست هناك علامات مميزة، ابتسم وهو يمسكني من أذني ويقول لمندوب الهجرة بالعربية: أهذا الذي منعكم من دخول الشقة؟

قلت وأنا أخلص نفسي من يده: البيت ملكنا.

- لا شيء ملككم الآن. اذهبو واحتلوا الشقة كما تريدون.

وقفت مرتبكا، لكني قلت: وأنا أين أذهب؟

قال بهدوء: اذهب إلى الجحيم، ادخل السجن إذا أحببت. سنوفر لك فيه الراحة.

قلت وأنا أحس الدموع تتصاعد إلى عيني: هذا ظلم. البيت ملكنا ولا يحق لكم أن تأخذوه.

قال الشرطي أو الضابط ساخرًا: ارفع قضية.

وتجاهلني ومضى. لا أحد يهتم بي أو بأقوالي. جلست على كرسي صامتا، الغضب يفريني من الداخل، أوشك على الانفجار، ماذا يمكنني أن أفعل؟ لا أريد أن أبكي، قد يأخذون الدكان أيضًا، لقد غيرت الأقفال بعد أن كسرت القديمة فأبي قد أخذ المفاتيح، سرقت أقفالًا بمفاتيحها من دكان أعرفه فر صاحبه، كنت أحافظ على الدكان وما فيها كي يأخذوها! ليت اللصوص نهبوها، أينتهي بي المطاف أن أعيش في الدكان؟ أو أسكن الشقة في الطابق الأرضي؟ قد يحتلونها أيضًا.

لم يكلمني أحد، أهملوني وتركوني جالسًا لا يأبهون بي. الحركة في المفوضية على أشدها، لا أدري كم مكثت جالسًا حين فوجئت بخالي إبراهيم وأم عبده وشخص ثالث، يهودي صديق لخالي منذ أيام الصبا كما عرفت لاحقا. أقبلوا نحوي، احتضنتني أم عبده، بينما قال خالي: ماذا حدث؟

حكيت له، وختمت قولي: قالوا ارفع قضية.

ابتسم خالي وهز رأسه عدة مرات، ثم تكلم مع صديقه اليهودي همسًا، ثم التفت إلي قائلًا: يمكنك أن تأتي لتقيم عندنا حتى تتضح الأمور.

قلت بعصبية: لن أترك الشقة. إذا تركتها فلن أعود إليها. أعرف ذلك تماما.

قال خالي: وماذا في يدنا لنفعله يا بني، هناك قانون صدر بخصوص أموال الغائبين بمصادرة كل الأملاك والبنايات التي غاب أصحابها عن البلاد حتى أواخر العام الماضي 1948.

- لكني يا خالي لست غائبًا. أنا موجود ولم أهاجر أو أنني لست آدميا؟
- أعرف. أعرف. لكن عائلتك كلها هاجرت وأنت لا تملك ما يثبت ملكيتك للبناية.
- لكنها ملكي وفى دائرة العقارات ما يثبت ذلك.
- كيف أفهمك الأمر. لا توجد دائرة عقارات الآن ولا يكترثون حتى بأوراق الملكية. استهدي بالله وهيا معنا ولن يكون البيت أول شيء نخسره.
- لا يمكنني أن أعيش هنا وبيتنا يضيع بهذه الطريقة.

قالت أم عبده: يا بني.. بيتكم القديم في البلدة القديمة ما زال موجودًا، يمكننا أن نعيش فيه سويًا ونبتعد عن المشاكل. لا نأمن يا بني ماذا يمكن أن يفعلوا بنا ثم في البلدة القديمة نعيش بين عرب مثلنا. أنا أخاف أن أعيش في بناية كل سكانها من اليهود.

قال اليهودي صديق خالي إبراهيم: سنجعلهم يسمحون لك باصطحاب ما تريد من أثاث شقتك وإذا رفعت قضية قد تنال بعض التعويض. لكني أرى ألا تعود إلى تلك البناية فهم مصممون على أخذها كما أخذوا غيرها.

لم ينتظر إجابتي، بل دخل إحدى الغرف ليحدّث مسؤولًا كبيرًا، ويعود حاملًا ورقة تخول لي نقل الأثاث من الشقة إلى أي مكان أريده، ناولني الورقة الممهورة بختم غريب، ضاعت الشقة وضاع البيت وكأني هاجرت تمامًا، كأن أبي كان يشتري الأرض ويبني البيت كي نهديه إلى أسر يهودية أتت من آخر الدنيا لتطردنا وتسكن فيه.

بصقت على الأرض وعلى العرب واليهود وتلك الأمم المتحدة.

قلت بعناد: سأنقل الأثاث من الطابق الثالث إلى الطابق الأرضي. قال خالي: أنت تغوى المشاكل.

قلت: يا خالي... كنت تريد أن تأخذ عفشنا حتى لا يأخذوه والآن تريدني أن أتخلى لهم عن البناية كاملة بما فيها..

- ليس في يدنا شيء.

صرخت: بل هناك، لن أعود إلى المباني القديمة المتآكلة الآيلة للسقوط أعيش في حوار وأزقة كالمنبوذين.

همّ خالي بضربي، ابتعدت عنه وقلت: لن أغادر بيتنا مهما حدث. ولن أذهب معكم حتى لو قتلوني.

جلب صراخي بعض الحاضرين فالتفوا حولنا بينما الثلاثة ينظرون لي بدهشة وأنا أصرخ بعناد: أنا أريد أن أموت. أريد أن أموت.

ابتسم شلومو صديق خالي اليهودي، ربت على رأسي وقال:

- هناك حل. ابن أختك هذا عنيد.

تكلم مع الضابط لحظات، فأشار إلى مندوب دائرة الهجرة الذي عاد منذ برهة، ذهب إليه شلومو وأخذا يتكلمان بالعبرية، ثم اتجها نحونا، قال شلومو:

- انتظر هنا يا أحمد أنت وأم عبده، هيا يا إبراهيم.

وخرج ثلاثتهم.

تنهدت أم عبده: ماله بيتكم القديم؟ كنت أعيش فيه أنا وزوجي وابني سعداء.

لم أرد. كان يوما كئيبًا منذ بدايته. لي ذكريات كثيرة في بيتنا القديم، المبني على تلة مرتفعة تشرف على المدينة، تصعد إليه بسلالم متعرجة تحيطها البيوت من الجانبين، يتكون البيت من دورين صغيرين، في كل طابق غرفتان، كنا ننام في

الطابق العلوي ونستخدم الطابق السفلي للأكل والطهي واستقبال الضيوف، كانت إحدى الغرف السفلية منحوتة في الصخر، لدغني عقرب ذات يوم وأنا صغير، كنت مستلقيًا على ظهري وأمي في المطبخ تعد الطعام، بكيت يومها كما لم أبك في حياتي، هرعت أمي ملهوفة وصرخت حين رأت عقربًا صغيرًا أسود يسير بقربي على الوسادة، يبدو أنه سقط من السقف ليلدغني، دعكت أذني بالثوم وحملني أبي إلى صيدلية قريبة ليعطوني حقنة، وقتها كان البيت أجدّ منه الآن، ربما امتلأ بالعقارب والثعابين وتريدني أم عبده أن أعود للسكن فيه.

عاد خالي وشلومو والابتسامة تعلو شفاههما. قال شلومو وهو يربت على كتفي:

- حُلت المشكلة، ستبقى شقة الطابق الأرضي لك.

ارتحت، لكني لم أظهر ذلك وأبقيت تكشيرتي مرتسمة على وجهي.

قال خالي: ألا يعجبك ذلك؟

قلت: بالطبع لا يعجبني لكني سأذهب لأنقل أثاث الشقة من الدور الثالث.

فكر شلومو قليلا: ألا تتركه لهم؟

- كيف أتركه؟ كل حاجاتي هناك، هل كسروا باب الشقة؟ لماذا لا يسكنون الدور الأرضي هل هم أفضل منا؟ سأرفع قضية رغم كل شيء.

قال خالي: اهدأ قليلا. هيا إلى هناك لنتدبر الأمر.

ذهبنا جميعًا، خالي وشلومو وأم عبده.

همس لي خالي: لا تتكلم أنت. دع الأمر لشلومو.

صعد شلومو إلى الطابق الثالث، غاب فترة قبل أن يعود قائلا: تستطيع أن تأخذ ما تحتاجه.

صعدت السلالم قفزا، وورائي أم عبده تلهث، بينما بقي خالي وشلومو في شقة الطابق الأرضي يتحدثان. كانت العائلة اليهودية مكونة من الأب والأم وولد وبنت. الولد في مثل سني والبنت أكبر قليلا. تطلعوا إلينا بحذر، اندفعت إلى غرفتي أحمل الأغطية والمراتب وألقيها على بسطة السلم في الخارج، وألم الكتب والأشياء الخفيفة وأتساءل لماذا لا يساعدني خالي، الولد والبنت يرطنان بلغة غريبة ليست العبرية أو الإنجليزية أو حتى الفرنسية، والرجل يقف يلاحقني بنظراته الحاقدة وأنا أتحرك بسرعة في الشقة بينما الأم تصرخ وتحرك يديها بلا هدف.

وضعت أشياء كثيرة في بطانية وسحبتها على السلم بعد أن لففتها، فليتكسر كل شيء على أن يأخذوه، أم عبده تفعل مثلي لكن بحذر أكثر، قلت لها:

- لا تهتمي يا أم عبده اسحبي فقط وليتحطم كل شيء.

لم أترك شيئا يمكن حمله ولم أحمله وعيون اليهود تكاد تبظّ من محاجرها، لكني كنت أمنع نفسي من البكاء بصعوبة، نقلت كل أدوات المطبخ وغرف النوم، لم أترك إلا الدواليب والأسرّة عارية، أخذت الكراسي والكنبات، دحرجتها على السلالم وتكسر بعضها بدأ الرجل يدور في الشقة متهيجًا حتى

خيل إلي أنه سيضربني، لكني لم أهتم، كسرت لهم ألواح الزجاج الأربعة التي بقيت سليمة من القصف. حاولت أن أكسر حوض الحمام فلم أستطع.

لم أشعر بالتعب إلا حينما انتهيت. كان خالي وشلومو يشربان الشاي في الشقة حين جلست أمامهما ألهث مبتسما. قال شلومو: لو تعرف كم كلفنا هذا.. لكنك تستحق. لم أهتم بقوله، كيف لو لم تكن العمارة عمارتنا، أكان يجب أن أكون يهوديا حتى أستحق الإقامة في وطني وبيتي! سيظل اليهودي يهوديًا مهما عاش بين العرب.. ناولني ورقتين وهو يقول: لو حاول أحد مضايقتك، أبرز له هذه الأوراق. أقفل الباب جيدًا.

وغادرانا.

ضحكت غيظًا وسرورًا.. ضحكًا هستيريًا، لم أستطع أن أتوقف عنه بسهولة، وأم عبده تنظر نحوي وتردد: حوالينا ولا علينا يا رب.

توقفت حينما رأيت الخوف يرتسم على وجهها وهي تحاول أن تنسحب إلى غرفة أخرى. استلقيت على سريري قائلا سأنام يا أم عبده. اذهبي لتنامي في غرفة أخرى وغدا نرتب البيت. غدا يا أم عبده..

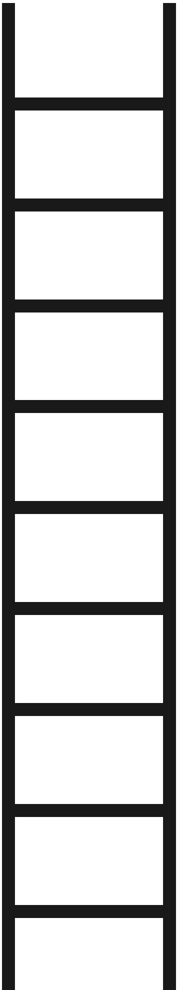

ليلة الذكرى
للشيخ أبو العينين
ونوبة صحيان

في الصباح لاحظ أن الولدين لم يذهبا إلى المدرسة، كانا ينتظران استيقاظه وهما مستعدان للخروج، قبل أن يسأل، قالت والدتهما: يريدانك أن تذهب معهما.

قال: خيرًا إن شاء الله؟

- جاء خطاب من المدرسة بضرورة ذهابك لمقابلة الناظر. وقد منعهما من دخول المدرسة إلا عند حضورك.
- ألم تعرفي السبب؟
- ها هو الخطاب.

قرأه وهز رأسه، ونادى على ابنه الأكبر وليد، جاء الولد يسير ببطء منكس الرأس.

- ما الحكاية؟

قال بسرعة: شجار مع ولد يهودي.

- ومن الذي ابتدأ؟
- هو. شتمني فشتمته ولكمه أحد أصدقائي. هذا كل ما في الأمر.
- ألم أقل أني لا أريد أي مشاكل مع اليهود، لا

نقاشات في السياسة وانتبها إلى دروسكما.

- لقد استفزنا يا أبي.
- على كل حال اذهبا إلى المدرسة الآن وأبلغا الناظر أني سأكون عنده في العاشرة. خذا العربة معكما حتى تصلا بسرعة. سأتمشى إلى الصيدلية.

غادر الولدان البيت، وقالت زوجته: تأخرت ليلة أمس.

- لا تقلقي.

تمتمت: أخاف عليك منذ مقتل والدي.

قال وهو يخرج: الأعمار بيد الله.

أُطلِقت النار على والدها، خالي إبراهيم، منذ ثلاث سنوات، أثناء حرب بيروت، كان في الصيدلية في فترة بعد الظهر، وكنت في البيت أستريح قليلا بعد الغداء، لأنزل في الساعة الخامسة لأحل محله في الفترة المسائية، دق جرس التليفون ليخبرني أحد العاملين في الصيدلية بالخبر. اتجهت مسرعًا إلى هناك، قابلت شلومو وذهبنا سويًا إلى المستشفى الفرنسي في شارع العجمي، أخبرنا العامل أنه كان يرص بعض الأدوية على الأرفف حينما دخل الصيدلية شابان، لم يسمع ما دار من حديث بينهما وبين خالي، وفوجئ بإطلاق الرصاص مرتين وبهروب الشابين بسرعة، وقع خالي على الأرض وجرى العامل نحوه، ثم اتصل بالإسعاف وبنا وبالشرطة.

سأله شلومو: هل تعرف الشابين لو رأيتهما؟

لم أتأكد منهما. لكني لم أرهما قبل ذلك.

حاولت الشرطة بكل الوسائل القبض على القاتلين، هكذا خيل لي، فشلومو له علاقات وارتباطات واسعة مع الشرطة، والمرتبات التي يدفعها للعديد منهم تجعلهم لا يألون جهدًا في خدمته، وأعرف أننا نعيش في حمايتهم بشكل أو بآخر.. حدثت بعض المداهمات بناء على تحريضات وشكاوى من أناس مختلفين ولأسباب مختلفة، ولكن النتيجة كانت لصالحنا في كل مرة، فنحن نعلم بالحملة قبل قيامها، ونتصرف بسرعة تبعا لذلك.

لا يأتي شلومو إلى الصيدلية إلا نادرًا، يدير الأمور من بيته، أذهب إلى الصيدلية صباحًا يساعدني «النص» ابن الشيخ أبو العينين، واثنان من العمال، وعند الظهر يأتي خالي إبراهيم يراجع الحسابات ويظل في الصيدلية حتى الغداء والقيلولة فيعود إلى منزله.

بعد مقتله، عشت قلقًا مضاعفًا، فلم أعرف إذا كان الحادث من تدبيرأصدقائنا أو أعدائنا، كانت علاقاته متشعبة وكثيرة، لكنني شعرت بالاطمئنان من هذه الناحية حين اعتقلت الشرطة حوالي عشرين شابا يهوديا من السفرديم من حي هاتكفا، حي البؤس اليهودي في الدولة، وقد اعترف هؤلاء الشبان بأنهم أسسوا تنظيما خاصا، ذا جهاز إداري جيد، وهدفهم الثأر من هذا البلد الذي أصابهم بالاختناق، وكان للتنظيم شعاره ونشيده الذي يقول: نحن مشعلو الحرائق/ نحن القتلة المأجورون/ نحن ما آتز/ نحن الأقوى/ واعترفوا بارتكاب أكثر من ثمانية عشر حريقًا في تل أبيب ويافا، وتشك الشرطة أنهم وراء مقتل خالي إبراهيم وإن لم يعترفوا بذلك.

ربما كانت هناك معاملات بينهم وبين خالي أدت إلى هذه النهاية أو يكون أحد ما قد استأجر بعضهم لتنفيذ العملية للخلاص من مديونية ما أو انتقامًا لخسارة في صفقة ما..

لم نعرف تحديدًا، وقيدت الحادثة ضد مجهول، وسارت الأمور سيرًا طبيعيًا خلال السنوات الثلاث الماضية والتي تلت حادث الاغتيال. لم تكن علاقتي بشلومو قوية قبل الحادث، فقد كانت علاقته مباشرة بخالي إبراهيم، وإن عرفت أنه بناء على توصية منه فاتحني خالي بأمر نشاطه المشبوه وضمني إليه.

لم أكن أعرف التفاصيل في البداية، وإن شككت أن هناك نشاطًا غير مشروع نتخذ من الصيدلية غطاء له، كنت أساعد خالي فترة ما بعد الظهر بينما أكون في الصباح في المدرسة. حينما أنهيت دراستي المتوسطة مع أبناء خالي وابنة شلومو، وكنا جميعا في مدرسة واحدة، لم أكمل تعليمي وتفرغت تمامًا للعمل في الصيدلية، بينما التحق خليل ابن خالي الأكبر بالجامعة العبرية في القدس هو وراشيل ابنة شلومو، وأقاما في القدس في شقة يملكها شلومو هناك، في حين سافر زكريا الابن الأصغر لخالي إلى أمريكا ليتم دراسته ولم يعد، واكتفت سعاد ابنة خالي بشهادتها المتوسطة.

ولم يكن أحد من الأربعة يعرف بأن خالي وشلومو يتاجران بالمخدرات، حتى أنا الذي كنت أعمل نصف يوم في الصيدلية لم أتأكد من شيء حتى فاتحني خالي في الموضوع. تم ذلك بعد تخرجي بسنتين، إذ دعاني للعشاء عنده ذات يوم، حيث قال ونحن نجلس نتناول الشاي بعد الانتهاء من الطعام:

- قد أنهيت دراستك الآن وحددت مستقبلك بالعمل معي في الصيدلية. حان الوقت لتتزوج وتستقر.

لم أعارضه، وكان أن تزوجت ابنته سعاد، ولا أخفي أني كنت أحبها وأتمنى الزواج منها، أعدنا تأثيث شقتي في الطابق الأرضي، وظلت أم عبده على وفائها، تخدمنا في النهار، وتعود إلى بيتنا القديم في يافا القديمة في الليل.

طلب مني خالي ذات أن يوم نزور البيت القديم في الحي العتيق. دهشت لهذا الطلب، وذهبنا معًا يرافقنا شلومو، كانت أم عبده برفقة زوجتي بالبيت، كان الطابق الأول من البيت القديم يتكون من غرفتين وصالة، إحداهما مبنية بالحجر الأبيض والأخرى منحوتة داخل الجبل هي والغرفة التي تعلوها في الطابق الثاني على قمة الهضبة التي تشكل البيوت المقامة فوقها الحي القديم بقسميه، المعاصر الذي جدده الصهاينة والعتيق الذي ترك على حاله.

فكر خالي قليلًا، أو اصطنع التفكير، فقد بدا لي أنه أدار الأمر بذهنه مرات من قبل:

- لو أغلقنا هذا الباب لما عرف أحد أن هناك غرفة هنا.

واتجه إلى شلومو قائلًا: ومن أرضية الغرفة العلوية نفتح بابًا صغيرًا يقود إلى هذه الغرفة فتكون مخبأنا السري.

قلت: وماذا تنوي أن تخبئ فيها؟

أجاب: ستعرف ذلك في حينه.

قلت: لكن البناء والهدم والإصلاح محظور بحكم القانون على أهل البلدة القديمة.

ضحك شلومو وربت على كتفي بمعنى أن أحدًا لن يعترض.

وفي يومين اثنين لا أكثر كان الباب قد أغلق وألصق ورق الحائط على الجدران، ولم يعد باستطاعة أحد أن يظن أن هناك غرفة وراء الجدار، وتحت سجادة ثمينة فوقها كنبة فخمة كانت الفتحة التي نتسلل منها إلى هذه الغرفة من الحجرة العلوية، لم يقتصر الأمر على ذلك بل إن هذه الغرفة السرية زودت بسقف خشبي متين يتوسطه باب سحري ليصبح هناك بابان سريان للوصول إلى أسفل الغرفة، حيث يمكننا أن نخفي أي شيء دون الخوف من اكتشافه بسهولة.

ظننت بادئ الأمر أن خالي سيخفي بعض الأسلحة، لكن معرفة شلومو بالأمر أبعدت هذا الظن عن ذهني، وفي الحقيقة فقد حملت الكمية الأولى بنفسي دون أن أعرف ماهيتها، فقد أوقف خالي عربته عند مطلع المدينة القديمة وقال لي: اسبقني بهذه السلة.

وسبقته، نظرت إلى ما فيها، فرأيت قطعًا كبيرة في حجم المفكرات المتوسطة ذات لون أخضر غامق، لم أكن أعرف الحشيش فلم أعرفها لكني أدركت أنها مواد خطرة.

عرفت بعد ذلك أن الصيدلية كانت بجانب بيعها للأدوية مركزًا لتوزيع الحشيش والمخدرات البيضاء، وأن شلومو هو حركة الوصل بين الموزع الكبير وهو يهودي ومنافذ التوزيع الصغيرة في يافا والتي كانت صيدليتنا تمونها بما تحتاجه من البضاعة.

وحينما تساءلت أم عبده عن هذا التغيير أخبرتها أن هذه الغرفة ستستخدم مخزنًا للأدوية المهمة والثمينة والهامة بعد عمليات السرقة التي تمت، بحيث لا نحتفظ في الصيدلية إلا بالقليل من هذه الأدوية، أما بالنسبة لي فلم أكن مستريحًا لهذا

الأمر لكن لم يكن باستطاعتي الرفض المباشر وخاصة وقد أصبحت شريكا لخالي بمقدار الربع في الصيدلية، وقلت في نفسي ما دمت لا أشترك في عمليات التوزيع على الزبائن فإني أستطيع التخلص من كل هذا النشاط حين يحين الوقت المناسب، وكان خالي مع شلومو يتولى جميع الصفقات بنفسه ويتعامل مع العملاء مباشرة دون وسيط، وقد أراحني ذلك نوعًا ما، لكن من يومها وسحابة من القلق والخوف تحيط بحياتي لم تبارحها حتى الآن.

كانت علاقة خالي بشلومو علاقة وثيقة منذ صغرهما، بل كان شلومو أحد المشجعين له على فتح الصيدلية، بدأ شلومو حياته كتاجر خردة في تل أبيب، وانتهى به المطاف بأن يكون متعهدًا للوحدات العسكرية البريطانية، وبهذا كان على صلة وثيقة بالإنجليز، وفى الوقت نفسه وثيق الصلة بالعصابات الصهيونية التي يزودها بالمعلومات عن الإنجليز ونواياهم وتحركاتهم عن طريق ارتباطه بصداقات وطيدة بعدد كبير من رجال البوليس البريطاني، مما هيأ له نفوذًا كبيرًا في إدارة المباحث العامة، ومن ناحية أخرى كانت صداقاته متعددة بمن يعملون في مكاتب الوكالة اليهودية ورئاسة الهستدروت وإدارة الشاي مخابرات الهاجاناه قبل 1948، وكان يقدم لهم الخدمات - غير تقديم المعلومات - بالسعي للعمل على خلاص من يقبض عليه من اليهود، سواء بتدخل أصدقائه أو بدفع الرشاوي للإفراج عنه.

لا أعرف كيف توثقت الصداقة بين خالي وشلومو، إلا أنه تقرر ذات يوم أن ينسف المكتب الذي يمارس منه شلومو عمله، وكان خالي يعرف الثلاثة المكلفين بوضع العبوة الناسفة، فأنقذ شلومو في اللحظة الأخيرة قبل أن يطيح الانفجار بالبناية التي يوجد فيها المكتب، وحفظ شلومو لخالي هذه الخدمة

وتنامت علاقتهما وتوثقت لدرجة كبيرة، وقد سهل لخالي كثيرًا من الأمور بعد قيام الدولة وتعاونا معًا في صفقات أكثرها غير مشروع.

طلب مني خالي ألا أفاتح أحدًا بما عرفت ولا حتى زوجتي، وطمأنني بقوله أننا نتلقى حماية الشرطة وأن هناك مرتبات كبيرة تدفع لكبار رجال الشرطة المختصين، صدقته آنذاك، لكني تأكدت بعدها أن هناك ضباطًا عديدين يناصبوننا العداء بشدة وإن كانت صلات شلومو القوية التي تصل إلى أعلى المستويات في الدولة تمنع عنا الكثير.

سألته: لكن لماذا هذا الطريق يا خالي؟

قال: أنت في هذه الدولة ليس لك كيان. ستعيش حقيرًا أو خادمًا لهم إلا إذا كان لديك النقود، والحصول على النقود صعب فلكي تكون سيدًا يجب أن يكون لديك الكثير منها وهذا الطريق الوحيد المتوافر لنا الآن على الأقل.

- لكن بيع الأدوية.. ألا يكفي؟
- ليس بما فيه الكفاية.
- وإذا اكتشف الأمر.. ماذا تكون النتيجة؟

ضحك ولم يجب على سؤالي لكنه قال: أي نتيجة؟ فليصبحوا جميعا مدمنين وليذهبوا إلى الجحيم... هل قلبك عليهم؟

- قلبي عليك وعلى أبناء بلدي.
- هؤلاء لا نتعامل معهم. نشاطنا بين اليهود وكل عملائنا منهم. أنت تعرف أن يافا هي الواحة التي يلوذ بها كل من يريد الراحة والترويح عن النفس. يأتون بعد حروبهم

وحملاتهم ليمارسوا الدعارة وتعاطي المخدرات. وهذا عظيم. ماذا يزعجك في ذلك؟.. ثم...

صمت، فقلت: ثم ماذا يا خالي؟

- إن صداقة المخدرات من أقوى الروابط التي تربط بيننا وبين اليهود العاملين بهذه التجارة، وتوقيف "جوجوندام" مهرب المخدرات المعروف في القدس وبحيازته متفجرات كان ينوي استعمالها في تفجير عدد من السيارات والأبنية اليهودية في قلب القدس يبرهن على التعاون الوثيق بين العرب واليهود في هذا المجال.

قلت ورنة الضيق تبدو في صوتي: ألا يوجد مجال للتعاون غير هذا؟

- وماذا تريدني أن أفعل؟ الكل من حولنا قد تخلى عنا يا بني. اطمئن. نحن حذرون وأنت شجاع وشلومو تنبّأ لك بمستقبل باهر منذ عرفك أول مرة فلا تخيب أملنا فيك.
- لكنى غير مستريح يا خالي.
- إذا كنت تخاف أن يُكشف الأمر فاطمئن من هذه الناحية.. إن صِلاتنا قوية ومن الصعب إثبات شيء ضدنا.

وقال بلهجة شعرت فيها بالتحذير أو التهديد: ونحن لا نتساهل أبدا مع من يخوننا أو يحاول أن يعترض طريقنا. فليطمئن بالك.

أعرف القوة التي يتمتع بها شلومو، فعند تغيير بعض ضباط الشرطة في مفوضية المدينة، توقعنا أن نواجه أوقاتًا عصيبة، ولكن تأكد لي أن قوة رجال العصابات دائما أكبر من حملات الشرطة، فحينما اشتدت هذه الحملات فكر شلومو وزميله الذي لا أعرفه حتى الآن في عملية خطيرة ظلت حديث المدينة فترة، فقد خططا لسرقة الصندوق الحديدي الموجود في

الطابق الرابع من دار المفوضية بكل ما يحويه من ملفات متعلقة بقادة المافيا في يافا وكبار مهربي المخدرات وسادة عمليات الابتزاز في البلاد، تمت السرقة بكل بساطة، ولم يمنع وزن الصندوق البالغ أكثر من طنين ولا مخاطر الانزلاق من الطابق الرابع السارقين من تنفيذ عمليتهم، ولا شك أن بعض رجال الشرطة كانوا متورطين في العملية.

بعد سرقة هذا الصندوق عادت يافا بالنسبة للشرطة طاهرة طهارة بنت بكر. وتم نقل كل طاقم رجال الشرطة بعد الحادث وجيء بغيرهم، وبدأت عمليات إغارة وتفتيش ومراقبة وحملات في الصحف ضد تجارة المخدرات وعصابات الابتزاز، والغريب أن بنت شلومو راشيل زوجة ابن خالي خليل مدرس الأدب العبري في جامعة تل أبيب، وكان قد تزوجها بعد تخرجهما مباشرة، كانت ضمن من قاموا بحملة صحفية على تجارة المخدرات في الصحيفة التي تعمل بها، جريدة ها عولام هازيه التي يرأس تحريرها اورى أفنيرى، وللصحيفة آراء خاصة في العلاقة والتعامل بين العرب واليهود، وهي معتدلة، الصحيفة وراشيل، وربما لزواجها من خليل وعلاقاتها بالعرب أثر في ذلك.

ونتيجة لمقالات راشيل، أطلقت الصحيفة محرريها وراء مهربي المخدرات، وحينما سقط أحد الموزعين الصغار التابعين لنا جن جنون شلومو وبذل الكثير لتخفيف الحكم عليه ولم يستطع أن يفاتح ابنته في الموضوع لتخفف من حملتها، فهي لا تعرف شيئا عن نشاطه، فادعى المرض وطلب من ابنته القدوم لزيارته في يافا، وكانت تسكن مع زوجها خليل في تل أبيب وتعمل بالإضافة لعملها في الصحيفة مدرسة في ثانوية

للبنات في تل أبيب. وكان شلومو قد دبر أن يحرق مقر صحيفة ها عولام هازيه وخشي أن تكون ابنته في مقر الصحيفة آنذاك، وقد نفذت العملية بدقة، وعلمت بعد ذلك أن الأولاد الذين اعتقلوا بتهمة الحرائق المتعمدة هم الذين نفذوا العملية، ولم أعرف من هو الوسيط بينهم وبين شلومو في هذه الحادثة.

وتمكن الزعماء من طي بعض كبار الضباط المنقولين تحت جناحهم وعادت الأحوال أفضل من سيرتها الأولى. تدفع أتاوات معلومة تخصم من حسابنا المشترك وكان كل شيء محسوب بدقة، وقد أفادتني هذه الحماية من الشرطة بصفتي أنتمي إلى شلومو صديق الجميع.

بعد وفاة خالي، لم أشترك مع شلومو إلا بصفقة كبيرة واحدة لم توزع كلها، فما زال جزء منها في الغرفة السفلية، كنت أتهرب من التعاون معه في صفقات جديدة، وهو يُعد صفقة كبيرة الآن لا أدري كيف التخلص من الاشتراك فيها، وفي الوقت نفسه لا أريد أن أثير الشكوك في نفس شلومو من ناحيتي خاصة بعد استقلالي المالي وإيداع معظم نقودي في بنوك في الخارج، أتعامل بحذر مع الموزعين الذين يعتمدون علينا وفي كل مرة أجد نفسي بعدها غارقا في بحر من العرق والقلق.

* * *

وصل الصيدلية فوجدها مغلقة، لقد تأخر العمال لأول مرة عن فتحها في الموعد المحدد، لا بد أن هناك سببا قويًا منعهم من ذلك. نسي المفاتيح في البيت اعتمادًا عليهم، عاملان عربيان يقومان بعمليات التنظيف والحراسة والمشال، ثم النص مصطفى أبو العينين وهو بمثابة ساعده الأيمن، يعتمد عليه في أمور كثيرة، وهناك الصيدلي المسؤول الذي عيّنه بعد وفاة خاله وهو يحضر في فترة ما بعد الظهر، تغيب الثلاثة مرة واحدة، المفاتيح مع مصطفى، لقد رآه ليلة أمس، لو كان ينوي أن يتأخر لأعطى المفاتيح لأحد العمال فهما يسكنان في يافا القديمة قربه.

قبل أن يبدأ القلق يفعل مفعوله في نفسه، وصل أحد العمال مهرولًا، قال قبل أن يسأله: لا مؤاخذة يا أستاذ أحمد الشيخ أبو العينين تعيش أنت.

هبط قلبه بين ضلوعه، ظاهرة غريبة بدأت تنتابه، كل صرخة يسمعها، كل كوب يقع على الأرض، مثلًا، ينتابه هذا الهبوط، تزداد دقات قلبه وتتوتر أعصابه، ويبدو مرتبكًا مرعوبًا لأسباب لا تستحق، الشيخ أبو العينين الذي تخطى الخامسة والسبعين من الطبيعي أن يموت، لماذا التوتر والقلق وتوقع حدوث كارثة، حاول أن يتمالك نفسه، قال:

- أقفلوا الصيدلية اليوم. اليوم إجازة سأتصل بشلومو لأخبره. سأذهب الآن إلى المدرسة لمقابلة ناظرها بخصوص الأولاد. بعدها أوافيكم في الحي القديم، أبلغ مصطفى ألا تتحرك الجنازة حتى أحضر.

* * *

كان هناك اجتماع مصغر لبعض أولياء الأمور وناظر المدرسة في غرفة صغيرة مطلية باللون الأبيض، على حافة نافذتها العريضة أصص زهور يتوسطها الشمعدان اليهودي المميز وقد زين برصاصات مدفع رشاش.

انقبض قلبه رغم الاستقبال الحار الذي قابله به الناظر، جلس ساهمًا بينما الناظر يقول:

- نشب شجار بالأمس بين ولديك وعدد من التلاميذ الآخرين. ونحن في المدرسة نحاول أن تحل مشاكلنا ديمقراطيًا دون تدخل أولياء الأمور.

قال في نفسه: يحملني جميلًا أنه لم يستدع الشرطة لحل مشاكله المدرسية.

وأضاف الناظر: ربما تعلم طبيعة هذه المشاكل وأنت تعرف أننا لم نأت لإسرائيل لقمع شعب آخر أو لتحرير بعض الأحجار المقدسة.. إنما أتينا ليجد الشعب الإسرائيلي مكانا يعيش فيه آمنًا بعيدًا عن الاضطهاد والتبعية. لقد قامت إسرائيل على هذا الأساس ولا أسمح بأن يحمل التلاميذ مفاهيم غير هذه ويجب على البيت أن يعاوننا في ذلك.

يظنون أن الأكاذيب والتضليل سينطلي علينا كما انطلى على الآخرين! يظل الكذاب يكذب حتى يصدق نفسه. كان الناظر يهوديًا مغربيًا، يحاول أن يبدو مثقفًا، تضم مدرسته أغلبية من السفارديم اليهود العرب، وقلة من الاشكيناز وبعض العرب. لا توجد مدرسة ثانوية عربية، والمضطر يركب الصعب، سيتخرّج أحد الولدين هذا العام فهو في الصف

الثاني عشر، سيريحه ذلك من بعض المشاكل، أما الولد الآخر فهو في الصف الحادي عشر. قال: خيرًا. ماذا حدث يا حضرة الناظر؟

لم يرد، وإنما نادى على أحد العاملين، وطلب منه استدعاء الأولاد الذين أثاروا الشغب في المدرسة في اليوم السابق، في حين اتجه أحد أولياء الأمور الحاضرين إلى الناظر بقوله: ألا تعتقد يا حضرة الناظر بأنا بفتح مدارسنا للشباب العربي كمن يبني أوكارًا للحيّات في بيته؟

تصاعد الغضب داخله، لكنه لم يدعه يبدو على ملامحه أو يتسرب تعبيرًا لفظيا من بين شفتيه، إنهم يحاولون استفزازه، إنه يعرف ذلك، إن قدره قد كتب عليه أن يظل يصبر ويصبر، لكن إلى متى؟

جاء الأولاد، وقفوا صامتين، أصبح في الغرفة ستة من الطلبة، وثلاثة أولياء أمور، ومدرسان بالإضافة إلى الناظر، قال في نفسه: الآن يبدؤون محاكمتنا!

ابتدأ الناظر الحديث بقوله: يهمنى أن يسود الوفاق بين طلبة هذه المدرسة ولا أحب أن تتصاعد المشاكل لتصل إلى الشارع. لذا جمعتكم لننهي ما ثار أمس من شغب وجدل، فكلكم تلاميذ معهد واحد يجب أن تخضعوا لقوانينه وظروفه يهودًا كنتم أو عربًا فجميعكم إسرائيليون تجمعكم هذه الدولة.

قال أحد الطلبة اليهود: إننا نحب الطلاب العرب ونساعدهم عند الحاجة ولكن السياسة يجب ألا تتوقف عند العلاقات الشخصية ولا تؤخذ بالعواطف.

تدخل وليد بسرعة قائلًا: أسمعت يا حضرة الناظر؟

توجه الناظر إلى التلاميذ العرب قائلًا: كلنا تجمعنا دولة واحدة يجب المحافظة عليها. وأنتم الثلاثة من أكثر الطلبة تفوقًا في الدراسة وكنت أعتقد أن لديكم من الوعي السياسي ما يجعلكم بمنأى عن هذه الحزازات الصغيرة.

علق أحد الطلبة اليهود بحدة: يتفوقون في الدراسة لأنهم يحصلون على منح كاليهود تمامًا ثم لا يمضون في الخدمة العسكرية يومًا واحدًا ولا يُطلب منهم حمل السلاح، هذا الامتياز هو الذي أتاح لهم التفوق!

قال الناظر: ليس هذا موضوعنا، تكلم يا حاييم.. ما سبب الخلاف؟ تقدم شاب في حوالي الثامنة عشرة، أشقر الوجه، ربما من الاشكيناز، قال:

- بعد عودتي من لبنان كنت أحدث الطلبة عن الأحداث التي واجهتني، حينما فاجأني هذا العربي بقوله لي «مجرم». نحن لم ندخل لبنان مجرمين. دخلنا لندمر أسلحة الإرهابيين ونرجع إلى بيوتنا، ومن هنا بدأ شجارنا.

اتجه الناظر إلى وليد قائلًا: هل تعتقد يا وليد أنه مجرم فعلًا؟

رد وليد: لقد قال كلامًا كثيرًا لم يذكره. قال إن الذي يسقط هو الذي يتعب أولًا. لقد سقط السادات لأنه تعب من شد أذنيه والعرب يتعبون بسرعة وسيسقط بقيتهم تباعًا. فانفعلت وشتمته.

قال الناظر بهدوء: أفهم وجهة نظرك لكن لماذا الاعتداء بالأيدي؟ واللكمات؟ ساد الصمت. تطلع الناظر إلى الطالب العربي الثالث وقال: لماذا التعارك بالأيدي يا محمود وضرب زميلك؟ صاح حاييم بعصبية: لم يضربني ولا أسمح لأحد بأن يضربني وأنا على كل حال لم أشتكِ لأحد.

تدخل أحد المدرسين: لم تشتك.. لكنكم أثرتم الفوضى في المدرسة!

قال أحد الطلبة اليهود: العرب هم الذين يثيرون الفوضى.

قال محمود بغضب: أنت الذي تثيرها بدلعك وتصرفاتك التي لا يرضى عنها أحد. نهض الناظر عن كرسيه وقال: ما جئت بكم هنا لإثارة الجدال من جديد. لا أسمح بأن يحدث ما حدث مرة ثانية في مدرستي. هيا تصافحوا ولينته كل هذا العبث وإلا سأجدني مضطرا باتخاذ صلاحيتي بفصلكم من المدرسة. هيا يا أولاد.

ردد المدرسان: هيا هيا.

تصافح الأولاد على كره، وصرفهم الناظر إلى فصولهم. مشى خطوات ووقف أمام والد حاييم قائلا: ليست هذه أول مرة يثير ابنك الشغب في المدرسة. منذ عودته من الحرب لا يستطيع أحد أن يحكمه ولا يعجبه أحد. أنا لم أقبله في المدرسة إلا بشرط حسن السلوك. قلل تدليلك له ولا تفسده.

قال والد حاييم: يا سيدي الناظر كيف لا أقوم بتدليله وقد يقتل في الحرب وهو في هذه السن الصغيرة. لا أرغب أن يُقتل وأن أذكر أني حرمته يومًا من شيء. لقد نشأ مدللًا وهذا حقه.

أضاف ولي أمر آخر: أنت ترى أننا نعيش على دمائنا في هذه الدولة. نحيا بالحرب نأكل بالحرب نشرب بالحرب.. إن اللوم يقع عليكم بقبول أبناء العرب في مدرستكم.

نهض أحد المدرسين منفعلًا: هذا منطق مرفوض لا أوافق عليه ولا أحب أن تغرس في عقل ابنك هذه المعاني!

بينما قال ولي الأمر الثالث: أنا لا أدري كيف تفكرون يا رجال التعليم. ألا تفقهون ما يجري حولكم؟ بدأ عرب فلسطين يحسون أنهم فلسطينيون وإذا لجأوا إلى الإرهاب يومًا، وسيلجؤون بفضلكم، ستكون حياتنا صعبة فهم يتكلمون العبرية ويعرفون عاداتنا وشوارعنا وبيوتنا ومستواهم الثقافي يجعل منهم في وطننا كأنهم في وطنهم.

انفجر أحمد ضاحكًا، حاول أن يكتم ضحكته فلم يستطع، وبدأ اللون الأحمر يغزو وجه اليهودي حتى كاد الدم ينبثق منه وهو يصيح: ما الذي يضحك في كلامي؟ ألا أقول الحقيقة؟

قال الناظر: هذا الكلام لا ينطبق على الأولاد في مدرستنا. وإذا لم تعجبك المدرسة انقل ابنك منها. إني أنذركم.. لا أسمح بإثارة أي شغب في هذا المعهد.

ثم أضاف: يا أستاذ أحمد أرجو أن تلفت نظر ولديك بألا يخوضا في أحاديث سياسية مع أحد داخل المدرسة. لا نريد مشاكل هنا وفي هذا الوقت بالذات.

قال ردًا عليه: على كل حال بقيت أشهر قليلة ويتخرج الولد الأكبر ولن تراه ثانية أما الأصغر فهو هادئ ولا يهتم بالسياسة.

قال الناظر منهيًا اللقاء: ستوقعون جميعكم على تعهد بأن أولادكم لن يثيروا الشغب ثانية في المدرسة وإلا تعرضوا للفصل.

وقعوا جميعا على تعهدات مطبوعة، وتفرقوا، واتجه صاحبنا إلى الحي القديم ليلحق بجنازة الشيخ أبو العينين.

* * *

همس الشيخ سعيد في أذنه: ألا تستطيع أن تدبر لنا الأمر يا أستاذ أحمد؟ قطعة الأرض الصغيرة هذه التي أقمناها كمقبرة سيستولون عليها فهي قرب منطقة الحفريات الأثرية التي أحاطوها بالأسلاك.

وبدأ صوته يعلو روريدًا رويدًا وهو يقول: آخر مقبرة كانت للمسلمين تنازلت عنها لجنة أمناء الوقف الإسلامي لصالح بلدية تل أبيب وقبلها تنازلت عن مقبرة عبد النبي لصالح شركة هيلتون بينما بُنِي فوق مقبرة الخماسين حي سكني يهودي في ضواحي تل أبيب ومقبرة الشيخ مونس بُنِي عليها قسم من بنايات جامعة تل أبيب وأخذت المصانع والمشاغل المجاورة ما تبقى منها ناهيك عن الذي حدث لمقبرة الشيخ مراد. لن نجد مكانًا ندفن فيه عظام موتانا وجماجمهم بعثرت بلا احترام لحرمة الموت وقدسيته، ألم يكلمك المرحوم حول هذا الموضوع؟

الوجوم يسيطر على جميع الحضور، يلتفون حول القبر في شكل نصف دائرة، واللحادون ينزلون الميت إلى حفرته، وعلى البعد تبدو مدينة تل أبيب، وفي الناحية الأخرى تستلقي مدينة يافا على الشاطئ حزينة، أصابته رجفة مع سقوط التراب فوق الجثة في القبر، تساءل هل تستقر يا شيخي في قبرك أم

يقلقونك كما أقلقوا كل الأجيال السابقة في مضاجعها الأبدية؟ كم حدثتني عن لجنة أمناء الوقف الإسلامي التي كوّنها اليهود لتنفيذ أغراضهم في الاستيلاء على المساجد والمقابر الإسلامية. اعتبروا أن هذه الأوقاف أملاكًا وأموالًا تعود إلى إدارة القائم على أملاك الغائبين باعتبار أن المجلس الإسلامي الأعلى لم يعد له وجود. لم تعترف دولتهم بأن تلك الأوقاف تعود إلى المسلمين وعينت أشباه رجال سمّتهم لجان الأمناء تختارهم من أعوانها لتسويغ طغيانها، يعبثون بكل المقدسات دون وازع من ضمير أو رعاية لحرمة. هدموا مسجد السكسك وتحول قسم إلى ملهى ليلي والقسم الآخر مصنع للبلاستيك، وجامع الفنار المطلّ على ميناء يافا استولت عليه شركة سياحية حوّلته من مكان للعبادة إلى مكان سياحي، مقام علاء الدين تحول إلى مقهى، حتى جامع الحي العربي القديم حرّموا على الناس إصلاحه، وكم اشتكى الشيخ من ذلك.

عزّى المشيعون مصطفى وانطلقوا كلٌّ في سبيله، صرف مصطفى العاملين وجلس تحت شجرة خروع، لم يبق سوى الشيخ سعيد يقف بجوار حمارته، وكلبة سوداء يتنطط حولها جراء ثلاثة في مثل لونها، وبعض الحشرات الزاحفة التي تصدر أصواتا عند مرورها واحتكاكها بأوراق الشجر المتساقطة، وعلى مرمى حجر تقع منطقة الحفريات، ستزحف هذه المنطقة حتى تلتهم المقبرة وتحولها إلى جزء منها وتضيع معالمها.

اقترب منه الشيخ سعيد يجر حمارته من رسنها وتابع حديثه قائلًا:

- مقبرة يازور اقتطعوا منها جزءًا كبيرًا لتوسيع الشارع دون مراعاة لمقابر المسلمين وباقي المقبرة أجروه لإقامة

بعض المشاغل ولم يهتموا بجمع العظام والجماجم ودفنها في مكان آخر.

صرخ فيه: اسكت يا شيخ سعيد. اسكت.

انكتم الشيخ سعيد مرة واحدة، قفز على ظهر حمارته وضرب عجزها بكف يده صائحا: حا حا.

جال بنظره مستعرضًا تل أبيب ويافا ثم المقبرة بشواهدها الحجرية وأشجار الخروع المنتشرة فيها، ثم القبر أمامه حيث يرقد شيخه، فزع للحظات حينما رأى صقرا يحط على القبر وبين مخالبه عصفور تعس الحظ، بدأ ينتفه بسرعة بمنقاره ومخالبه ليتناثر ريشه على القبر كله فيغطيه بطبقة أضفت عليه جمالا، وبدأ يأكله، لم يترك سوى المنقار والرجلين، لم يهشه لأنه عرف فيه صقر مصطفى، ربما نسوا أن يطعموه بسبب الوفاة، وربما جاء يودع الشيخ بطريقته الخاصة.. ابتسم. مرت بذهنه حادثة العام الماضي على شاطئ البحر، حين تركت سيدة يهودية كلبها اللولي يجري بين المصطافين يزعجهم ويثير الفزع بين الصغار. كان يجلس مع مصطفى ومعه صقره الذي يتنقل بين كتفه والشمسية وذراعه، ناظرًا إلى الكلب بالعين اليمنى تارة وباليسرى تارة أخرى، محنيًا رأسه ذات اليمين وذات الشمال، منتظرًا إشارة من صاحبه، وحينما غمز له فرد جناحيه وطار محلقًا فوق الكلب الذي بدأ بالعواء بصوت غريب غليظ، ولما بدأ الصقر يدحرجه بمخالبه تبول الكلب ثم تبرز، وأصبح كالكرة بين قدمي الصقر يصيح صياحًا عاليًا ليس له علاقة بالنباح أو العواء، ضحك الحضور وتجمهروا ليتفرجوا بينما صاحبة الكلب تصرخ وتولول خوفًا على كلبها، نادى مصطفى على الصقر هامسًا: سيأتي يوم نفعل بكم هكذا.

بدا أن مصطفى قد غفا تحت شجرة الخروع، فقد اتجه إليه الصقر وأخذ يرفرف بجناحيه أمام وجهه، ثم وقف على كتفه ومنه إلى أحد أغصان الشجرة.

قفز مصطفى ناهضًا، ومن أوراق شجرة الخروع صنع إكليلا علقه على أحد الفروع، ثم بدأ يخلع ملابسه، وربط الإكليل حول وسطه كالحزام، ووضع إكليلا من الزهور التي وضعت على القبر حول رأسه، دار حول القبر عدة دورات ثم بدأ يرقص عاريا والعرق يتصبب من كل جسمه وهو يردد: تقترب منه عنات العذراء وكما يهفو قلب البقرة إلى عجلها، وقلب الشاة إلى حملها، كذلك يهفو قلب عنات إلى بعل، وتمسك بموت ابن آل وبالسيف تشقّه، وبالمذراة تذروه، وبالنار تحرقه، وبالرحى تطحنه، وفي الحقل تبذره، فتأكل قطعه الطيور، وتُفني أجزاءه العصافير جزءًا جزءًا، وهكذا يعود بعل إلى الأرض وتعود معه الخصوبة والوفرة.

اقترب منه وهزّه قائلًا:

- هيا بنا إلى البيت.

تطلع إليه مصطفى بنظرة غامضة، ثم ضحك وضحك واستلقى على القبر فاردًا ذراعيه شارد الذهن. فكر، لو تواتيه الشجاعة أن يخلع ملابسه ويتمرغ على الأرض يستنشق عبيرها، لكن قيودا كثيرة تشدّه وتمنعه، هل يتركه ويمضي أم ينتظر حتى يصحبه؟ دار بنظره في المكان عله يقع على أحد لم يغادر بعد، لا أحد، وقبل أن يقرر ما الذي يفعله، نهض مصطفى شاهقا بنظره إلى مدينة يافا، رافعا يديه في اتجاهها، صائحًا:

"أيتها المدينة اشهدي أني أحبك. لكني محب فاشل كالآخرين.. كل الآخرين الذين يهرشون رؤوسهم وأنت تستباحين كل يوم ألف مرة وما زالوا يهرشون».

ثم حمل بين ذراعيه آخر جرة ماء كانت بقرب القبر ودلقها فوق جسمه، وجرى مسرعا ليرتدي ثيابه. صاح: هيا يا أستاذ أحمد.

سارا والصقر يحلق فوق رأسيهما.

في البيت قال له: ما هذا الذي فعلته؟

قال: رقصة الانبعاث، أتيمن بها. تنعش الحلم الذي يعشش في صدورنا جميعا ولا يستطيع أحد اصطياده ولا حتى أمريكا بكل جبروتها. سيتحقق يوما ولا يستطيع أحد أن يحاصره أو يمنع امتداده من النهر إلى البحر. هل رأيت مكتبة أبي؟

- أعرف أن عنده مكتبة كبيرة لكني لم أرها.
- أريد أن أتبرع بها. وأريدك أن تساعدني على فتح مكتبة عامة في الحي ليقرأ القاصي والداني ما جاء في كتبها.

جرى إلى غرفة داخلية، وعاد يحمل أعدادًا من جريدة فلسطين والدفاع والفجر والتي كانت تصدر في يافا قبل النكبة. بعثرها على الأرض وعاد ليلقي فوقها بكتب تفاسير وأحاديث وكتب تاريخ وعلوم الدين وغيرها وهو يردد:

- كل هذا التراث. كل هذا التراث.

قال له:

- مصطفى اهدأ.. اهدأ.

صاح: هل قرأت هذه الكتب؟ أنا قرأتها وكأني عشت ألف عام. أريد كل الناس أن تقرأها.

لم يرد.

- وبالأمس القريب ابن خالك يتقدم ليأخذ جائزة الدولة العبرية للأدب العربي من يد بيجن الذي فتح يافا. اغتصبها واستولى عليها. وحينما أطلب منه تفسيرًا لما فعل يقول يا أخي لماذا لا آخذها. ألا أدفع الضرائب. ألا ترهقنا الدولة بمطالبها المالية. لو قتلت ابن خالك هذا لا تلمني.
- معلوماتك قديمة. لقد رفضها بعد ذلك. القبول أعلن بكل الوسائل والرفض الذي تبعه لم يعرفه إلا القلة.
- وأنت.. لولا أن أبي كان دائم الإلحاح علي أن أقف بجانبك لكان لي منك موقف آخر لكن أبي مات الآن.

نهض واقفا، قال: أنت اليوم لست على ما يرام. أنا مضطر للذهاب الآن. سأمرّ عليك في المساء. البقية في حياتك.

انسحب مسرعًا، وفي ذهنه تدور فكرة أن أحدا منهما ليس في حالته الطبيعية. كان الشيخ وزوجته مبروكة يرافقان أهلي في عربة الباص تلك، في اليوم الذي هاجرت فيه عائلتي. فوجئت به في مسجد البحر أثناء زيارتي للبلدة القديمة يؤم الناس في صلاة الجمعة، استقبلني بالأحضان وأصرّ أن يأخذني معه إلى البيت لأرى زوجته وأتغدى عنده ويحدثني عن رحلة هجرته وعودته. لم تكن زوجته قد حملت أو ولدت، كان مقدر لها أن تلد بعد عشر سنين من ذلك التاريخ لتنجب له شيطان الإنس ابنه مصطفى الشهير بالنص.

سألته: لماذا لم يعد أهلي يا شيخ أبو العينين؟

- والله لا أدري يا بني. وعلى كل حال لم تكن العودة ميسورة كما تظن، رأينا الأهوال في الخروج والعودة. لم أر والدك منذ وصلنا خان يونس وبتنا ليلتنا في كراج بامية للسيارات شركاء خالك حامد في شركة النقل الجنوبية المحدودة في فلسطين. كنت أظن أنهم فكروا بالعودة مثلي أو حتى عادوا قبلي. لكن يبدو أني أنا وخالتك مبروكة الوحيدان اللذان عادا.

تناولت عندهما الغداء، وخففت عني روح الشيخ أبو العينين المرحة الكثير. قال: الحمد لله الذي تمكنا من العودة قبل أن يحصروا السكان المتواجدين ويصدروا بطاقات الهوية وإلا لاعتقلنا بتهمة التسلل إلى بيتنا. سبحانه، له في ذلك حكم. ثم أردف: لكن أنت أين رحت يا ملعون؟ أبوك وأمك وأخوالك قلبوا الدنيا عليك.. ألم تركب الباص معنا؟

- ركبته لكني تسللت نازلًا لأحضر كتبي ولعبي وحين عدت وجدت الباص قد ذهب.
- كان يمكن أن نرجع لك. لكن مع عمى قلبنا لم نفتقدك إلا بعدما قطعنا مستعمرة نيتر. آه من نيتر يا بني. لم تسلم عربة آتية أو غادية من ضرب مدافع ورشاشات تلك المستعمرة التي تقطع الطريق. كانت تسير أمامنا عربة لوري يستقلها عدد من الفلاحين يصطحبون معهم حيواناتهم ودواجنهم وانطلق الرصاص عليهم كزخ المطر. اعتادت العربات أن تهدئ من سرعتها قليلا قبل المستعمرة ثم تنطلق بأقصى سرعة، وكل عربة وحظها، عربة الفلاحين ترنحت وانحرفت إلى جانب الطريق ثم انفجرت، انطلقت الدجاجات تقوقئ والبط يصيح والناس

تجري وتصرخ وهم يصطادونهم كالأرانب. هذا المنظر جعل شعر رؤوسنا يشيب وضغط خالك حامد على البنزين لينطلق الباص بسرعة.

- وكان فوقه بعض "جلنات" الكاز التي سقطت بسبب زيادة السرعة أمام المستعمرة على الأسفلت ويبدو أن اليهود ظنوها ألغاما فأخفوا رؤوسهم فترة قصيرة كانت كافية أن ننطلق بعيدًا عن مرمى رصاصهم، تنفسنا الصعداء وحمدنا الله وفجأة صاحت أمك: أين أحمد؟ ورد أبوك من مقدمة العربة حيث يجلس: كان بجانبك. قالت: ليس بجانبي. كان الجميع جلوسًا، تفقدناهم، لم تكن بينهم، قال أخوك محمد: رأيته ينسحب وينزل من الباص. وصرخ فيه أبوك: ولماذا لم تنبهني وقتها؟ أجابه بخوف: ظننته عاد وجلس في مكان آخر.

وقالت أمك من خلال دموعها: «كان لازم تضربه يا بن عمي». وقال أبوك وهو يضرب كفًّا بكف: ماذا نفعل الآن؟

وجاءه الرد من خالك حامد: لا نستطيع أن نعود الآن. لو اكتشفتم فقده قبل مستعمرة نيتر لعُدنا، أما الآن فلو عدنا فقد نموت جميعا.

وقال خالك عمران: هناك احتمال كبير أن يلحقنا في عربة أخرى.

وعقب خالك حامد: سنسلك طرقا فرعية بعيدة عن المستعمرات اليهودية لذا سنتأخر في الوصول إلى غزة وقد نجده قد سبقنا إلى هناك.

جلس والدك ساهما وأمك تبكي. وقال خالك حامد: وإذا لم نجده فسأحضره معي عندما أنزل يافا الأسبوع القادم فلا تقلقوا.

حين وصلنا المجدل، أخبرنا الصحاب في محطة العربات عن

فقدك، وأن يخبروك إذا مررت بهم بأننا متجهون إلى خان يونس في كراج بامية للسيارات. وتكرر القول نفسه في غزة التي وصلناها بعد العشاء بعد أن انقطع نفسنا في الطرق الرملية والجبلية، بنشرت العجلات أكثر من مرة. فالطرق صعبة صخور ومسامير وحفر. نمنا ليلتها كيفما اتفق.

بقيت مع أهلك في كراج بامية يومين، أرى الحزن في عيون والديك، يسألون كل عربة عنك، لكن أحدًا لم يرك، وأقفلت الطرق، ومنعت المعارك أشجع الناس من المغامرة بالعودة. دبّ الأمل في نفوسهم ساعة أن وصل كلبكم جاك جريًا في اليوم التالي لوصولنا ولا أعرف كيف استطاع أن يلحق العربة ويتمكن من الوصول.

وغادرت أهلك خجلا منهم، خفت أن أثقل عليهم، فكما تعرف حالي على قدي، وأنا رجل حساس، أخذت خالتك مبروكة وودعتهم بعد أن كذبت عليهم بقولي أني وجدت مسكنا ووعدت بعمل. كان الجامع الوحيد في خان يونس ممتلئا بالعائلات، فذهبنا إلى مدرسة في شمال البلدة، وجدنا في كل غرفة خمس عائلات أو أكثر يفصل بين كل عائلة وأخرى كيس من الخيش فرد على شكل ملاءة ومعلق على حبل. وحول المدرسة وفي حوشها تكدست خيام صغيرة كأخمام الدجاج، فأكبر خيمة كانت في اتساع كيسين من الخيش وفي علو متر، أحد أطرافها مربوط بمسمار مدقوق بحائط المدرسة الخارجي أو دورة المياه، والطرف الآخر مربوط بوتد مدقوق في الأرض، يدخلها الناس زحفا كالحيوانات، وليتنا حصلنا على واحدة أو حتى نصف واحدة، كان الناس سكارى وما هم بسكارى، تسألهم لماذا خرجوا وتركوا مدنهم وقراهم فيحدثونك عن الحرق والإبادة التي اتبعها اليهود مع سكان القرى والعذاب الذي رأوه، ويسألك أحدهم بدوره وأنت لماذا خرجت؟

المهم، تركت خالتك مبروكة جالسة على كيس من الخيش في إحدى غرف المدرسة مع عدد من العائلات، لا تملك مليمًا واحدًا ولا كسرة خبز تأكلها ولا هدمة تلبسها سوى ما عليها.

خرجت أتفقد المكان وأبحث عن طعام، عائلات بأكملها تقيم تحت الشجر وكثيرون يتسولون، كانوا يوزعون عليهم بمعدل رغيف واحد للفرد كل أربع وعشرين ساعة، رأيت مناظر أبكتني وأوجعت قلبي، صغار وكبار يأكلون قشر البطيخ كقوتهم الوحيد وينامون في العراء دون غطاء، رفعت يدي إلى السماء ودعوت الله أن يرفع مقته وغضبه عنا. قرب المدرسة كان هناك معسكر آخر من الخيش، تصليه الشمس نارا حامية، يعجنون هناك بعض الطحين ويخبزونه على نار الحطب التي يتصاعد دخانها إلى عنان السماء، يُعمي البصر ويزيد من حرارة الجو. تساءلت: أهؤلاء هم أهل فلسطين؟ لماذا لم يبقوا ويأكلوا التراب في قراهم ومدنهم. ولماذا لا يكون في يدهم سلاح؟ حتى الخيش الذي أعطوه لهم ليجعلوه ستارًا لدورات المياه وجدوا أن دفع غائلة الموت عنهم أولى من ستر العورة فصنعوا من الخيش فراشًا وأغطية لأطفالهم ونسائهم ويقضون حاجتهم في العراء.

ماذا أقول يا بني، ذهبت لأحصل على بضع كيلو جرامات من الدقيق، فوجدت طابورا أطول من كيلو متر يقف تحت أشعة الشمس المحرقة، وقبل أن يصلني الدور جاءت طائرات الصهاينة لتلقي فوقنا قنابلها، اندسست تحت عربة لوري كانت تقف قرب المكان، واندس تحتها كثيرون، يخفون رؤوسهم فقط، مات مَن مات، واختلط الدقيق بلحم ودم الناس، وحينما خرجت من تحت اللوري فوجئت بالعديدين ممن تقطعت أيديهم وأرجلهم.

لاحقتنا الغارات في كل مكان.

قلت في نفسي إذا كنا سنموت فلنمت في بلدتنا، في بيتنا.. لماذا هذا الهوان؟ وأقسمت أن أرجع مهما كلفني الأمر حتى لو مت في الطريق.

عشنا أياما كأنها الحجيم بعينه، أشهرا قليلة ذقت فيها المر، كانت خالتك مبروكة ترفض فكرة العودة بحجة أن الطرق خطرة والحرب دائرة، لكن لم أستطع أن أحتمل، قلت لها لا بد من العودة أو أطلقك وأعود وحدي. وكانت المشكلة فيمن ينقلنا إلى يافا. ركبنا عربة لوري محملة بأقفاص العنب متجهة إلى غزة وكان غذاؤنا العنب الذي تفضل السائق بإعطائه لنا. ومن غزة ركبنا مع سائق ابن حلال في سيارته المتجهة إلى المجدل، كان بعض أهلها قد غادروها والباقون يستعدون للرحيل والهجرة، حاولت أن أثني من قابلت عن الرحيل، صلّيت الظهر في جامع البلدة ودعوت الناس إلى البقاء وشرحت لهم حالتي قائلًا أنا عائد إلى يافا من هول ما رأيت في الهجرة فالموت في بيت المرء ووطنه خير ألف مرة من المغادرة، لكن لم يكن لكلامي أي صدى، فالرعب من المذابح التي سمعوا عنها جعلهم يعقدون العزم على الرحيل حتى تهدأ الأحوال ويكتسح العرب عصابات الصهاينة، وكل ما خرجت به أن أحد المصلين أشفق عليّ وأعطاني حمارًا يعيننا على السفر.

غادرت المجدل حزينًا، متجها إلى حمامة حيث لي أصدقاء كثيرون هناك، وأعرفها بيتًا بيتًا، كنت أدعو الله ألا أجد أهلها قد غادروها، لم يقابلنا أحد ونحن نمر بسيارة أبو عودة وبيارة الآغا والشيخ إدريس وهي البيارات المحيطة بالقرية، كان الشجر يغص بالبرتقال والكروم بالعنب، ملت إلى مسجدها الكبير المسمى بمسجد الشيخ عرقوب، صلينا المغرب والعشاء

وقضينا الليلة في المنزل الملحق بالمسجد لأبناء السبيل وكان غذاؤنا الفاكهة من العنب والتين والتوت والبرتقال الأخضر، في الصباح الباكر غادرنا القرية، زرنا مقام سيدي الشيخ أبو جهم الملاصق لمعسكر سابق للقوات الإنجليزية، وانحدرنا إلى أسدود، مارين بجميزات التوتة الشهيرات، كانت أسدود قد هاجر كل أهلها وفيها قوة مصرية صغيرة جمعت السلاح القليل الذي كان بأيدي أهل البلدة ممن بقوا للدفاع عنها بحجة أن السلاح في أيديهم خطر وأنهم جاءوا للدفاع عن القرية وأهلها، ولم يبق أحد في القرية، فبدون سلاح ماذا يستطيعون أن يفعلوا؟ قابلني ضابط استوقفني قائلا: إلى أين أنت ذاهب يا شيخ؟ قلت: عائد إلى بيتي، قال: هذه منطقة عسكرية محرم السير فيها ثم إنها خطيرة، قلت بعصبية: والله لو جاءت كل الأرض لتثنيني عن العودة إلى بيتي فلن أرجع وأنا أتحمل مسؤولية موتي وموت زوجتي. تساءل: وهل تقطع المسافة على حمارتك الهزيلة هذه؟ قلت: حتى زحفا لو اضطررت، وأضفت: لماذا لا تتقدمون ولا أحد أمامكم لماذا تقفون هنا؟ ماذا تنتظرون؟ رد بغضب: وهل ستعلمنا عملنا؟ كلها أيام قليلة وتعود إلى بلدك معززا مكرما. قلت: أرجو ذلك لكن ما أراه لا يبشر بخير. قال وهو يسير جانبي: اسمع، إن قوة اليهود وهمية. نحن نعرفهم. إذا خاضوا معركة هاجموا بكل قواهم التي يجمعونها من ميادين مختلفة ليبثوا الرعب في أوصال أهل المدن والقرى والقوات التي يهاجمونها، ولو أن الجيوش العربية شاغلتهم من عدة جهات لافتضح ضعفهم وبان قصورهم. قلت: ما دمتم تعرفون ذلك فلماذا لا تنفذون؟ قال: القادة يقررون.

تركته للصلاة في مسجد أسدود في الجامع المقام على مقام سيدي الشيخ المتبولي، وواصلنا سيرنا، بعد أن وصلنا يافا بأيام قليلة سقطت الحليقات وانسحب المصريون وسقطت أسدود

والمجدل في أيدي اليهود دون معارك تقريبا ونحن الذين كنا ننتظر وصول القوات العربية، لم ينفذ العرب شيئا من وعودهم ولا خططهم، لموا السلاح من الفلسطينيين وتراجعوا، لم يقتربوا من الحدود التي عينتها الأمم المتحدة لليهود في قرار التقسيم، سلموا مدنا بأكملها لليهود، أضاعونا يا بني، سرت إلى يافا وقطعنا المسافة الباقية في ثلاثة أيام، نستريح وننام في بيوت تركها أهلها في القرى الصغيرة المنتشرة بين أسدود ويافا، اقتربنا من الموت مرات عديدة لكن ربك سلم، ماذا أقول لك، سجدت لله شكرا حين وصلت يافا، وحينها دخلت بيتي لم أصدق نفسي، كم كنت غبيا إذ غادرت، اسمع يا بني، رغم كل الفظائع التي شاهدتها في طريق العودة، جثث نساء وفتيات صغيرات مهتوكات العروض مشوهات الأجسام ملقيات على أبواب بيوتهن المهجورة وفي أحواش دورهن، فإن ربك يمهل ولا يهمل وعلى الباغي تدور الدوائر إن عاجلًا أو آجلًا، لن تقوم لهذه الدولة قائمة وسترى.

* * *

رحمك الله يا شيخي، لقد عشت حتى رأيت الدولة تكبر وتتسع وتقوى لتحتل باقي فلسطين وتعترف بها أكبر دولة عربية وتمتلك سلاحًا ذريًا يبعث الرعب في أوصال الحكومات العرب المتقطعة، لكن ليس في أوصالنا نحن، سترى يا شيخي ما تمنيت أن تراه لكن بعيون أولادك وأحفادك، أتمنى أن يمد الله في عمري حتى أرى دولتهم خرابا ينبثق من رمادها طائرنا الجديد.

* * *

حين عاد في المساء إلى الحي القديم، كانت ابنة الشيخ يوسف الكتبي "عنات" في بيت مصطفى، انتهز فرصة انشغاله مع المعزين وسألها عن حاله قالت: لم يكن طبيعيًا يا أستاذ أحمد. أعرف ذلك من نظرته. أخاف أن يرتكب حماقة ما فأنا أعرف هذه النظرة في عينيه.

كانت عنات ابنة الشيخ يوسف ذات ملامح غلامية، حتى أن الصبيان والبنات كانوا ينادونها في صغرها حسن صبي، كانت شيطانة مثل مصطفى، وقد أحبها وطلبها من أبيها وتمت خطبتهما منذ فترة، قال لها: متى سنفرح بكما؟

أجابت: قريبا بعد أربعين سيدي الشيخ.

قال: اعتني بمصطفى وخففي عنه.

قالت: الله يعلم كم أحبه لكن مفاجآته التي لا أتوقعها ترعبني.

قال محاولًا أن ينهي الحديث: مصطفى ولد طيب ويستحق كل خير.

قالت: وهو ينكش في الغرفة الداخلية اليوم قتل ثعبانًا كبيرًا كان يقطن فيها. وقد تشاءمت ذلك وأخاف العاقبة.

ابتسم وقال: هل تؤمنين بالخرافات؟

- يقولون إن الثعبان هو عمورة الدار.
- وهل تصدقين ذلك؟
- لا أعرف. لكني مضطربة اليوم.
- هل كنت تفضلين أن يتركه حتى يقتل أحدكم أو يتسلل إلى بيت آخر ليقتل أحدًا فيه؟

- في الحقيقة ما أثار هذه الخرافات في ذهني هو ما تلا قتله للثعبان، فقد حمله وكان في طول عشرة أقدام وذهب إلى منطقة الحفريات الأثرية قرب المقبرة، أحرقه وهو يرقص رقصة مريرة، ذهبت معه إلى هناك، أتدري ما الذي فعله بعد ذلك؟

صمت قليلا ثم أردفت: حمل رماده بعد أن جمعه من فوق لوح الصاج الذي أحرقه عليه، مضى إلى النصب التذكاري الصغير الواقع عند طرف الطريق، نثر الرماد عليه ثم تبول فوقه، ورآه اثنان من اليهود ولحقانا ولولا اختفاؤنا في الأزقة هنا للقينا حتفنا.

- ذلك النصب المنقوش فوقه: ليفنى كل أعدائك يا إسرائيل؟

هزت الفتاة رأسها بالإيجاب قالت: في كل مناسبة تسنح كان يتبول على أي نصب تذكاري يقابله وكنت أرتجف رعبًا وهو يفعلها وأنا أنتظره.

ارتجف قلبه، إن الطقوس التي يمارسها الفتى اليوم عجيبة، كلما أقترب منه أكثر كلما أخافه، وأعجب به أيضًا، ما الذي يدور في ذهن هذا الفتى؟ دخل مصطفى عليهما مندفعًا قائلًا:

- ماذا تدبران بهذا الليل؟

قال له: الأحرى أن أسألك هذا السؤال!

رد مصطفى بمرح: الليلة سنذهب لنصلي في منطقة الحفريات الأثرية. أبلغت كل من جاء يعزّيني ودعوته للمشاركة. هكذا وشوشني الشيخ. في وحشة الطريق الجبلي الصاعد والنازل

هناك والخوف المشروع يحيط بقلبي وظلمة الليل والوحدة وصلني صوته همسًا ارتفع بداخلي واضحًا جليًا في هذه البقعة المقدمة حيث كل شبر داسته قدم نبي من أنبياء الله ورسله، يكون معبدًا من معابد الله، في ليلة وفاتي عليك أن تقيم المكان ثانية وأن تبعد عنه السامري الذي شيد عجلًا جديدًا حشاه بأسلحة أمريكية وبدأ يخور ويجول في المكان.

سأله: متى قال لك الشيخ ذلك؟

رفع مصطفى رأسه إلى أعلى، وانتظر قليلا قبل أن يجيب: من قبل أن أولد.

تسرب الخوف إلى قلبه، وفكر كما فكر في الصباح أن الفتى قد جن أو على وشك.

سألت عنات: أتريد أن تمنعهم من مواصلة حفرياتهم؟

- نصلي في المكان ويمتنعون.
- قد يطلقون عليكم الرصاص لو رأوكم.

وقال تعليقا على كلام عنات: قد تتسبب في أذى كثير من الناس.

قال مصطفى وعيناه شاردتان: لم تعد تفهمني يا أستاذ أحمد. هم لا يأتون في الليل أبدًا إلى المنطقة. ثم إن سكناك وسط المدينة مع اليهود غيّر من طبيعتك الداخلية أنا أدرى بما أفعل إذا لم ترغب في القدوم معنا فأنت حر وأنا لا ألومك. سأذهب حتى لو اقتصر الأمر عليّ وعلى عنات.

قال وهو ينسحب: وأنا أيضا لا ألومك وأوافقك لكني مرتبط بموعد سابق فأرجو معذرتك، وفقك الله وكن على حذر.

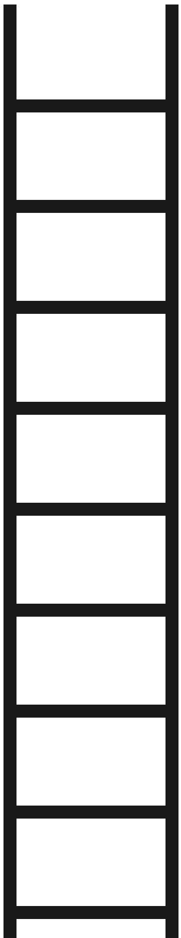

مقام الشيخ مراد
ومقام البغل
وسلام للسلاح

اتصل به عاموس ليخبره أن الشلة ستحضر لتقيم سهرتها المعتادة، انقبض قلبه، كان يتمنى ألا يأتوا في هذا الوقت، فلم تعد به رغبة لرؤية أحد أو الحديث مع أحد منهم، لم تعد به رغبة في السهر أو الخروج في الليل، لم يعد له رغبة في العمل، كره الصيدلية، وكره الذهاب إلى الحي القديم، ونشاطه غير المشروع، بل وكره نفسه.

ارتمى على كرسيه وراء مكتبه في الصيدلية، يتظاهر بمراجعة أوراق أمامه، أحد العمال يقوم بالتنظيف ومسح الزجاج، والآخر يقوم بالبيع للمترددين لشراء الدواء، مصطفى لم يحضر بعد، لم يعتد التأخر، لكن ظروف الوفاة تبيح له العذر. سأل فجأة:

- هل قال مصطفى أنه سيتغيب اليوم؟

رد العامل بهدوء: قال إنه سيحضر فور الانتهاء من دفن المكسح.

قال بوجل: وهل مات المكسح؟

- تعثر كرسيه أمس ووقع من فوق الهضبة إلى منطقة الحفريات فدق عنقه.

فكر بأن الحادث لا يمكن أن يكون قضاء وقدرًا، المكسح الذي بدأ نشاطًا لبيع المخدرات لأولاد الحي، لا بد أن أحدهم دفعه ليتدحرج من فوق السلالم ويقع في منطقة الحفريات، وهذا الأحد هو مصطفى أو أحد «الشبيحة» من أصدقائه.

لا يعرف كم مر من الوقت وهو ساهم في جلسته، زاهدًا في عمل أي شيء، و بوادر اكتئاب تحيطه وتلقي به في هاوية لا يعرف قرارها.

جاء النص متهللا كعادته وكأن شيئا لم يحدث، قال مبتسمًا: غار في داهية.

تساءل: من؟

- المكسح!
- رحمه الله. هل له أولاد؟

أجاب النص: لم يترك سوى زوجة ومعها من النقود ما يكفيها طوال عمرها. لقد كان شخصًا زائدًا لا فائدة منه سوى بذر الشر.

رد بعصبية: لا تحكم على الناس بهذه السهولة.

قال النص بهدوء: المفسدون في الأرض يحق عليهم عقاب الله وكلٌّ حسب جريمته.

- وهل هو المفسد الوحيد يا مصطفى؟
- لو كل مفسد في ديار المسلمين طبقت عليه الشريعة لصلح الحال.
- وهل أنت مُخَوّل لتحاكم الناس وتحكم عليهم؟

قال بسخرية: تريد من اليهود أن يعاونونا في إصلاح حالنا؟! أنت إذن واهم إذا فكرت بهذه الطريقة وستغدو مثل أصحاب لنا.

قال: ما كان يجب عليك أن تفعل ذلك.

رد مصطفى بدهشة: أفعل ماذا؟! هل تظن أني قتلته؟!

لم يرد. وأضاف النص: وقع وحده. ولو أن في الأمر غرابة لكني لم أشك في أحد من الحي، ربما ساسان وَلي جميع المتشردين وأبناء السبيل.

- ومن هو ساسان هذا؟ أيقطن في الحي؟

ضحك مصطفى وغير الحديث: كيف انتهت مشكلة الأولاد في المدرسة؟

- وكيف عرفت؟
- حضرا للعزاء أمس وأخبراني، ألم ترهم؟
- انتهت على خير والحمد لله.

قال مصطفى بلهجة ساخرة لم تخف عليه: لا تنس أن تأتي الليلة للعزاء في المكسح فأهل الحي ينظرون إليك كراعيهم بعد مقتل خالك إبراهيم.

رد وهو ساهم: إن شاء الله.

يذهب ليعزي، ثم يميل إلى بيتهم القديم ينتظر وصول الشلة، لا يدري ماذا يقولون في الحي عن علاقته بهؤلاء اليهود؟ لا أحد يبدي له شيئًا، لكن لا بد أن هناك كلامًا يتناثر، ومصطفى؟ كيف ينظر إليه في أعماقه؟ رغم أنه يصغره بكثير، عشرون

عامًا أو أكثر، فهو يعترف أنه متوافق مع نفسه أكثر منه وأنه أشد منه مكرًا ودهاء، يقتل القتيل ويمشي في جنازته، بل ويكفّنه ويدفنه، يعيش حياته بالطريقة التي تحلو له، له نشاطات أخرى لا يدري عنها شيئًا.

إن حياته لا تروق له. تحول في الفترة الأخيرة إلى رجل يعيش حياة رتيبة، على مشارف الخمسين، لا تهمه حياة الآخرين ومغامراتهم، يقضي أمسياته في بيته عدا ليلة أو اثنتين يقضيهما ساهرًا مع أصدقاء من اليهود، زملاء سابقون في المدرسة، يستفيد منهم ويستفيدون منه، يحشش معهم، ولا يدري كيف تسللت هذه العادة إلى نفسه، لكن "طباخ السم بيدوقه"، وقد ذاقه واستمر في تذوقه مجاراة لهم وعله يخفف الضغط النفسي الذي يكاد يحطمه.

يخاف على الأولاد من انتقام الصهاينة، فالأطفال اليهود ينشئونهم على طريقة خاصة، لا يعاقبون على العدوان، وينتظر أهلهم منهم أن يدافعوا عن حقوقهم، يربونهم على العنف وإلغاء الجبن والنزعة العاطفية من حياتهم، يبدون عدوانية تفصح عن نفسها في غالبية مواقفهم، يخاف أن يدبروا حادثا للولدين، فالخائف وغير الآمن يضرب بلا تفكير، وهم يفتقدون الأمن رغم كل مظاهر القوة التي تحيط بهم، متى ينتهي الأولاد من الدراسة؟

وقفت عربة أمام الصيدلية، عرف في سائقها مدرس من جماعة السلام الآن، فهو يلصق فراشات على زجاج سيارته كتب عليها "السلام أفضل من الأراضي"، هذا الموقف يتيح لهم أن ينالوا خدمة ممتازة في الأماكن التي يعمل فيها عرب، وهي كثيرة.

حياه المدرس وقال: اطمئن يا أستاذ أحمد فنحن نرعى الأولاد. الآخرون هم الذين استفزوهم.

شكره وباعه الأدوية التي يحتاجها. بعد أن ابتعد بسيارته قال مصطفى:

- "السلام الآن" يضحكون علينا لينالوا مأربهم.

شعر بالإرهاق، قال للنص أنه ذاهب إلى البيت وسيوافيه في المساء في البلدة القديمة. وهو يركب عربته همس مصطفى في أذنه: هل تحب أن نتصرف مع الولد الذي تسبب في الشجار في المدرسة؟

قال بعصبية: حذار يا مصطفى. لا تتدخل في هذا الأمر إطلاقا. ستوجه التهمة إلى الولدين ولا أريد أن أفقدهما أو أسبب لهما المشاكل.

رد مصطفى بهدوء: أمرك كنت أريد أن أخدم.

- أنت بذلك لا تخدمني. أنت تخرب بيتي. حذار حذار.

أدار محرك سيارته ومضى غاضبًا. هذا العنف الذي يدور كالزوبعة داخل مصطفى، كيف لم يتنبه له منذ البداية، ذات يوم زار الشيخ في بيته وتغدى عنده، قامت زوجته مبروكة لتغسل الأطباق وجلس مع الشيخ يتحدثان، يومها كان مصطفى في حوالي الخامسة عشرة من عمره، اندس بين وسادتين ينصت إلى حديثهما. مال الشيخ نحوه وقال:

- ألا قل لي يا أحمد، ألا تستطيع أن تدبر لي فردًا؟

دهشت: تريد سلاحا يا شيخ أبو العينين؟

- الأحوال أصبحت خطرة. جماعات الشبان اليهود تنتشر بكثرة هذه الأيام في الحي تثير الذعر بين المصلين بشكل لا تتخيله يا بني.
- وهل ستقاومهم وحدك يا شيخي؟
- إلى متى سنظل سكوتا يا بني؟ هل تصدق أني وجدتهم يمارسون.. ماذا أقول على جدران المسجد كي يستفزوننا.. إن من حقى أن أضربهم بالرصاص!
- والنتيجة يا شيخ أبو العينين؟
- النتيجة. سيتحول المسجد إلى ملهى ليلي. أتعرف مقبرة جدك الشيخ مراد؟

مقام الشيخ الجليل أضحى إسطبلا لبغل أحد اليهود الذين يقطنون قرب المقبرة. حرموا على العرب زيارتها بالقوة وتحولت إلى مكان يلقون فيه نفاياتهم. أصبحت المقبرة مزبلة لهم والمقام إسطبلا. هذه هي النتيجة.

- أقصد نتيجة عملك لو أطلقت الرصاص.
- أفهمك، هي النتيجة نفسها. أعرف أني سأذهب في داهية فالحل الفردي لن يجدي لكن على الأقل «أفش غلي» قليلًا. إني أشك أن هناك من يسلطهم علينا. ماذا يريدون منا. ألا يكفي أنهم حولوا المدينة إلى ماخور كبير؟ إن هذا من غضب الله يا بني.
- نتبع الطريق الرسمى يا شيخي، نقدم شكوى إلى السلطات.

- قدمنا يا بني، أنت لا تأتي إلى هنا إلا نادرًا ولا ترى ما يفعلون. قدمنا أكثر من شكوى ولا فائدة.
- اصبر يا شيخي. اصبر.
- المهم. إذا استطعت تدبير قطعة سلاح فلا تبخل بها علي.

لم أرد عليه. لكن ما عمله مصطفى وهو في تلك السن كان مؤشرًا لما سيصبح عليه هذا الولد. كان مقام مراد يقع في حي كفار شليم، تعرض المقام والمقبرة إلى حريق كبير لم يعرف أحد سببه، ولولا اعتراف مصطفى لوالده، وقد كانا يرتبطان بعلاقة وثيقة جدًا قل ما توجد بين أب وابنه، لظل الأمر سرًا حتى الآن، ذهب إلى المقام ودخل على البغل ورش صفيحة كاز في أرجاء المكان وربط في ذيل البغل قطعة قماش مبللة بالكاز، ولا أدري لماذا لم يرفسه البغل ربما لصغر حجمه، وأشعل النار، جرى البغل وسرت معه النيران في النفايات التي ألقاها اليهود من أهل الحي في المقبرة، تلفت القبور وتاهت معالم الشواهد وامتدت النيران إلى الحي اليهودي ومات البغل وثلاثة من اليهود ولم تُطفأ إلا بعد جهد جهيد..

كان يجب أن أفهم طبيعته منذ ذلك اليوم، قبل وفاة والده بأسابيع قليلة، تقابلنا عند الشيخ يوسف الكتبي قلت للشيخ مازحًا: لو قامت الدولة الفلسطينية في الضفة والقطاع هل تذهب إلى هناك لتستريح من رؤية اليهود؟

رد مصطفى بحدة: لن نهاجر يا أستاذ أحمد. لن نذهب إلى الدولة الفلسطينية الجديدة، وعلى الدولة أن تأتي إلينا فمكانها هنا أيضًا.

تجاهلت رده، وعدت أتوجه للشيخ يوسف بالحديث، فقال لي: لقد قال مصطفى كل شيء. في ذهن الولد أشياء كثيرة مفرحة ومربكة، لقد دبرت للشيخ سلاحًا بعد ذلك، كنت مترددًا في إعطائه له، وظللت أشهرا أدير الأمر في ذهني، خوفًا على الشيخ، لا أدري مصير السلاح الآن، ربما يحتفظ به النص، وعلى كل حال قل تردد الشباب اليهود على الحي العربي، لكن عليّ توقع مفاجآته.

* * *

مكث ربع ساعة في عزاء المكسح، وغادر متسللًا إلى البيت القديم، تحدث مع أم عبده قليلًا، ترك الباب مفتوحًا دون أن يقفله جيدًا. حتى إذا أتوا صعدوا كعادتهم دون أن يضطر للنزول، كان يرغب في العودة إلى بيته، إلى زوجته وولديه، وكان يأمل ألا يحضروا، وكان يدير حوارًا في ذهنه في كيفية إخبارهم بإنهاء هذه الجلسات، من المؤكد أن أهل الحي يلاحظون قدومهم، ألا يمكن أن يداهموهم هنا في البيت ويقتلوهم؟ هل يفعل مصطفى ذلك؟ إنه يعرف أنهم يأتون ليحششوا، وهو لن يهتم لو انتشر الحشيش بين كل اليهود ما دام العرب بعيدون عن ذلك، هل لأنه يدخنه معهم؟ وظل يأمل ألا يحضروا وينظر في ساعته كل خمس دقائق، كان يهيئ نفسه للمغادرة حين جاوزت الساعة التاسعة، حينما سمعهم يدفعون الباب ويدخلون، يصعدون السلالم ويطلون عليه بوجوههم الشائهة، عاموس وأنجيل وديفيد، يحملون الأكياس الورقية المملوءة بالأطعمة وعلب البيرة.

قال: لقد تأخرتم. وأضاف: لماذا لم تحضروا في موعدنا السابق؟ رد عاموس وهو يلقي بنفسه على المرتبة المفروشة على الأرض: حدثت مصيبة لأنجيل وما كان يريد الحضور اليوم وقد اصطحبته رغمًا عنه في سيارتي.

قال متصنعا الاهتمام والحزن: ماذا حدث؟ عسى أن يكون خيرًا.

قال أنجيل بعصبية: ليس خيرا على كل حال..

عاد ليقول: أقلقتني. ماذا جرى؟

قال عاموس: أسبوع من العمل المرهق الشاق. زودنا بالصنف أولا ثم نتكلم.

فتحوا الأكياس واللفافات وبسطوا الطعام على المفرش أمامهم، فتح كل منهم علبة بيرة، وبدأ يعد لهم كوب الحشيش، ينظر إليهم وهم يأكلون ويشربون والكوب يمتلئ بالدخان الأبيض كالحليب، وتمر بذهنه خاطرة أن يداهمهم أحد الآن وينهي حياتهم جميعًا بصلية رشاش تنقذه من هذا الجحيم.

قال لأنجيل: دورك فأنت أكثرنا حزنا..

أخذ «شفطة» كبيرة أفرغت الكوب: فأعاد تغطيته بقطعة الورق المقوى جيدًا، ليعود فيمتلئ بسرعة بالدخان الأبيض الكثيف، قال لديفيد: دورك فأنت ضيف من أمريكا يجب أن نكرمك.

قال ديفيد بعد أن أخذ نفسًا طويلًا: صنف ممتاز، من أين تحصل عليه؟

أجابه: سر المهنة يا ديفيد.

قال: أتكلم جادا... هل هو صنف محلي أو مستورد من لبنان أو تركيا؟

رد عليه: وماذا يهمك، المهم أن تستمتع!

قال عاموس: أستطيع أن ألقي القبض عليك وأجعلهم ينتزعون منك المعلومات بالقوة.

قال ضاحكًا: يبدو أن البيرة أسكرتك يا عاموس فكيف لو أخذت نفسا الآن؟

قال عاموس: ألا تصدقني؟ ليس أيسر من اعتقالك!

- ومن قال لك أني سأعترف؟
- لدينا وسائلنا!

قال ديفيد: ساعتها ستحرمون من جلسة كهذه.

قال عاموس: أفكر أحيانًا أن أهاجمك هنا لأمسكك متلبسًا في ليلة كهذه.

قال: صدقني وقتها لن تجد شيئًا.

وناول الكوب لعاموس ليأخذ نصيبه وهو يقول: أنا الذي أفكر بالفعل في إنهاء هذه الجلسات.

قال أنجيل بعصبية: دعونا من هذا الحديث، عندي من المشاكل ما يكفيني. دعونا ننسى.

دارت الكوب عليهم كل يأخذ نفسًا.

قال ديفيد: أحمد، لماذا لم تهاجر كأهلك؟

رد بسخرية: حتى يكون لي شرف الحصول على الجنسية الإسرائيلية.

قال أنجيل: امتياز أتمنى أن أتخلص منه. نفسي أن

أهاجر إلى أمريكا، متى تسافر يا ديفيد؟

- الأسبوع القادم.
- ليتني أستطيع السفر معك. أود الاستقالة ومغادرة هذه البلاد اللعينة.

قال له: وما الذي يمنعك. المطارات تفوّت الجمال!

- ليس الأمر بالسهولة التي تتخيلها. يجب أن أدفع ما يوازي خمسة آلاف دولار للدولة.
- بسيطة. يمكنك تدبيرها ومغادرة البلاد وإراحة دماغك.
- وكيف أحصل عليها؟ هل تقرضني إياها؟

قال بدهشة: أنا؟! بجهدك يمكنك الحصول عليها. فتح مخك!

ابتسم أنجيل لأول مرة منذ قدم وقال: أشرب من الحشيش ما يفتح مخ الحمار. دلني كيف أحصل عليها؟

قال له بلهجة مازحة: بضع رشاشات عوزي وتكون النقود في جيبك.

اعتدل أنجيل في جلسته بحركة مفاجئة وقال بجدية: هل تتاجر بالسلاح؟

- ليس لي علاقة بهذا الأمر، لكني أبين لك الطريق ويمكنك أن تتصرف.

أشاح بيده قائلًا: أتريدني أن أدلل عليها بين المواطنين العرب؟

اعترض عاموس: تقصد الإرهابيين!

رد أنجيل: اتركنا من المصطلحات التي لا تفيد الآن.

كانت لهجته جادة، وندم أحمد على ما تفوّه به، لكنه لا يمكن الرجوع عما قال إلا إذا استطاع أن يحول الحديث كله إلى مزاح.

قال أنجيل: لو بقيت في الجيش لسهل الأمر، بعد نقلي سدت السبل في وجهي.

قال ليغير مجرى الحديث: يبدو أن الأمور متأزمة معك. ما الحكاية؟

قال عاموس: أقول لكم الحكاية باختصار، أنجيل له ابن في العشرين من عمره. أحب بنتًا جميلة كان يصحبها معه إلى البيت، لكن البنت أعجبت بأنجيل، فأقام علاقة معها، وأنتم ترون أنجيل، عيون زرق وشعر ناعم طويل وبشرة بيضاء، أحبته البنت وقالت للابن بصراحة أنها تحب أباه.

قال ديفيد: هذه شهادة للأب.

رد عاموس: وشهادة ضد الابن الذي شعر بالغيظ فأشعل النار في شقة والده بما فيها من أثاث حتى السيارة أحرقها أيضًا وترك البيت خرابًا.

قال أنجيل بأسى: خسرت من جراء عملته هذه أكثر من ثلاثين ألف دولار. كل ما جمعته في حياتي من عملي في الجيش والمخابرات وكمسؤول عن الزراعة في المنطقة الجنوبية.

هلل ديفيد قائلا: لقد قلت لي أنك ما زلت في المخابرات؟

- كذبت عليك. أخرجت من الجيش ونقلت إلى وظيفة مدنية.

ساد الصمت لحظات، وتبادلوا الكوب يشفطون الأنفاس. والتهوا بالطعام عن الحديث.

بدأ ديفيد الكلام موجهًا الحديث إلى عاموس: وهل أنت ضابط بوليس أو نقلت إلى عمل آخر؟

ابتسم أحمد: هذا أعرفه جيدًا. كان ضابطًا في شرطة يافا هنا. أما الآن فهو ضابط جمارك مسؤول عن تحصيل الضرائب الإضافية على البضائع الواردة إلى الضفة والقطاع عن طريق ميناء أسدود. هل أكمل أم أكتفي بذلك؟

أضاف عاموس ضاحكًا: أكمل. ماذا ستضيف أيضًا؟ أن أمي صاحبة مطعم في أشكلون وأنه أحد أفخم المطاعم في المدينة، وزوجتي هناك أيضًا وأملك شقة في يافا مذ كنت ضابطًا هنا. هل تعرف شيئا آخر؟

- هذا يكفيني.

وأكملوا طعامهم.

نظر في ساعته وقال: الوقت متأخر. لا بد أن أعود الآن أو هل لكم في كوب آخر؟

قال أنجيل: وأنا سأقوم أيضًا.

نهضوا، أطفأ النور وأقفل الباب.

قال أنجيل: سأركب مع أحمد في عربته.

قال عاموس: ولماذا تتعبه؟ سأوصلك.

- لا. سأتحدث معه قليلًا ثم آخذ عربة تعود بي إلى البيت.

هز عاموس كتفيه: كما تريد. إن ما حدث لك ألقى بظل ثقيل على السهرة.

ركب ديفيد مع عاموس، واصطحب أحمد أنجيل في عربته. وسار في الشوارع الخالية في هذه الساعة من الليل.

قال أنجيل: لماذا تسرع؟ أبطئ قليلًا. أريد أن أتحدث معك.

وأضاف بعد لحظة صمت: اذهب إلى شارع ميشاريم على الكورنيش.

قاد السيارة ببطء متوجسًا، فيم سيحدثه أنجيل، لم ينفردا في جلسة معًا مذ كانا طالبين في المدرسة منذ أكثر من عشرين عامًا، ماذا يريد منه اليوم؟ أضاء نور العربة القوي فاصطدم بالنصب التذكاري في حديقة المنتصرين، أقيم تذكارًا لجنودهم «أسرع من الملائكة وأقوى من الأسود» كم يكره هذا النصب، ها هو أحدهم بجانبه تفوح منه رائحة الحشيش وفي قوة فأر تناول سمًا، أدار العربة وعاد مسرعًا، بعض السكارى يترنحون على الرصيف، والناس تخرج من مسرح الحمام الذي يديره

إسرائيليان قاما بتجديد الحمام التركي القديم وأقاما مسرحًا في أحد جوانبه يقدمان عليه عروضًا ساخرة يكتبانها بنفسيهما تهاجم الحكومة والمؤسسات اليهودية والعرب بطريقة لاذعة.

استدار بالعربة ليعود إلى وسط المدينة. آنذاك قال أنجيل بجدية وبلهجة سريعة: أحمد، أريد منكم مساعدة.

تردد قبل أن يجيبه، قد تجره أي كلمة إلى متاعب ليس مستعدًا لها، هل يشكون في شيء، أو يرسمون له خطة ما. قال بهدوء: ماذا تقصد بـ «منكم» هذه؟

- لا تدعي أنك لا تفهم. أنا أتكلم جادًا.
- أعرف أنك تتكلم جادًا. لكني لا أفهم.
- أقصد المنظمة.

تسارعت دقات قلبه، وارتعشت يده قليلًا، لكن مع الظلام لم يلاحظ أنجيل شيئًا. قال برقة عابثة: أنجيل. أنت تعرف أن ليس لي علاقة بهذه الأمور!

- لا تحاولي إقناعي بأنه ليس لك علاقة. أعرفك منذ مدة طويلة ولا أظن أنه ليس لك علاقة.

قال بغضب: يبدو أنك جننت! أنا تعب والأفضل أن يعود كل منا إلى بيته الآن.

- أفهم أنك ترفض مساعدتي.
- أساعدك بما أستطيعه، أما ما تقوله.. اذهب الآن لتنم ودعنا من هذا الحديث.

قال بلهجة شبه مهددة: هل ترفض مساعدتي؟

لم تعجبه لهجة أنجيل فقال بعصبية: أقفل على هذا الموضوع حتى لا أسلمك للمخابرات.

- أنت تسلمني للمخابرات؟
- ماذا جرى لك يا أنجيل. هل تريد أن توقع بي؟.. حطم أجهزة التسجيل التي معك.

قال بسخرية: أو تظن أني أحمل أجهزة لا بد أني أضعها في مؤخرتي! أنا أختنق..

قال له: من شرب الحشيش!

- أنا أشرب لأنسى.
- إذن انسَ هذا الموضوع نهائيًا ولنبق أصدقاء.

قال بغضب: أنزلني هنا من فضلك.

أوقف السيارة بقوة، نزل أنجيل وانطلق بسرعة إلى بيته. كانت زوجته نائمة، اندس في السرير والقلق ينهشه، ماذا في ذهن أنجيل، ولماذا قال ما قاله، هل يعرفون شيئا عنه، هل يخدعونه طوال هذه السنين؟ ولم لا؟ هل السهر معًا وتدخين الحشيش والاشتراك في بعض المغامرات يمنع من الخداع؟ إنهم ألد الأعداء، يتمنون أن يغمضوا عيونهم ويفتحوها فلا يروا فلسطينيًا واحدًا. هل هناك من ينسى ما فعلوه ويفعلونه بكل ما هو عربي؟ كيف شك بأن له علاقة بمنظمة التحرير؟ الحذر الشديد هو رائده في علاقته بهم، قد لا يكون حذرًا بما فيه الكفاية في موضوع المخدرات، اعتمادًا على شلومو ورجال الشرطة

المجندين لديه لحمايتهم وتضليل وتغطية أي دليل، أما العلاقة مع المنظمة فهي أمر خطير لا يسكتون عليه، لو شكوا فيه لانتهوا منه منذ زمن، لقد أخطأ في حديثه عن السلاح، هذا هو الذي جعل أنجيل يشك، وربما يكون في ورطة فعلًا، لو بإمكانه أن يوفر بعض قطع السلاح، آخر صفقة كبيرة من السلاح مضى عليها زمن طويل، ثمان عشرة سنة، من عمر ابنه وليد، كان «تانامي» يهوديًا يمنيًا يجيء إلى الصيدلية ليأخذ كمية من المخدر بقدر النقود التي معه، يقوم بتوزيعها بمعرفته، كان تعامله مع خالي مباشرة، أرسله شلومو بعد أن أكد أنه مضمون وصاحب ملف لدى الشرطة، كما أنه شخص صلب لن يعترف إذا قبض عليه، ووفي لن يغدر، والأهم أنه يمكن التخلص منه بسهولة، هذه كانت كلمات شلومو سمعته يقولها لخالي.

كنت يومًا وحدي في الصيدلية، جاءني ليقول لي: أريدك في أمر هام.

قلت له: انتظر قليلا. خالي سيحضر بعد قليل.

قال: أريدك في أمر لا أريد أن يعلم به أحد غيرك لا خالك ولا شلومو ولا أحد.

قلت له: اجلس. كان الوقت بعد الظهر، حركة العمل قليلة، خالي في البيت، والعامل الوحيد وقتها كنت قد أرسلته ليحضر لي الغداء من البيت.

قلت له: أنا لا أعرف شيئًا عن أي شيء.

قال: أعرف، لكني أريدك في موضوع آخر تمامًا.

كنا نتحدث بالعبرية، لكنه قال لي بالعربية: أنت عربي.

نظرت إليه نظرة حادة قائلًا: ماذا تقصد؟ قال: اسمعني جيدًا. نتيجة لحرب الأيام الستة استطعت أن أكوّن ثروة لا بأس بها لكنها ثروة مجمدة.

قلت: لا أفهم!

قال: جمعت كمية كبيرة من الأسلحة المسروقة من الجيش. رشاشات عوزي وبنادق متنوعة وقنابل وبعض المدافع.

ارتجفت، قلت وأنا أبلع ريقي: وماذا تريدني أن أفعل؟

- تبحث لي عمن يشتريها. وعمولتك محفوظة، بالتأكيد أنت تعرف. وأرجو أن يظل هذا الأمر بيني وبينك حتى لو لم توافق.

فكرت، هل ينصب لي فخًا؟ لكن لماذا ينصب لي هذا اليمني البائس فخًا؟ هل خدعه خالي أو شلومو؟ كان الأحرى أن ينصب الفخ لأحدهما.

قلت له: لماذا اخترتني أنا ولم تطلب ذلك من خالي؟

ابتسم، قال: تريد أن تبعث بي إلى الجحيم. خالك صديق حميم لشلومو.

- وما أدراك أني لن أبلغه؟
- لي رأي خاص فيما أتعامل معه، أعتقد أنك لن تبلغه.

لو كانت خدعة، سأقول إنه كان يريد مخدرًا ورفضت أن أبيعه وهددته بالإبلاغ عنه فحاول الانتقام مني باختراع قصة السلاح هذه. آنذاك يتخلص منه شلومو بسهولة.

سألته: هل الأسلحة في مكان أمين؟ رد بسرعة: أمين تمامًا وسأوفر لك نقلها إلى أي جهة في البلاد. لي طرقي الخاصة.

ما يهمني هو الشاري وبسعر معقول وأن يتم الأمر بيننا فقط وعمولتك محفوظة.

- هل أنت متأكد أنك غير مراقب ولا يوجد من يحتمل أن يشي بك؟
- تأكد من ذلك تمامًا. فأنا جدّ حذر. إني أتعامل معكم منذ ثلاث سنوات. هل أخللت بوعد مرة واحدة؟

قلت: اتركني بضعة أيام. أسبوع مثلًا. عد في مثل هذا اليوم أخبرك بما استطعت أن أفعله.

سلم علي بحرارة وخرج مسرعًا، تابعته حتى غاب عن نظري، إن لديه كمية من الأسلحة لو وصلت إلى أيدي الفدائيين فستساعد تمامًا. لكن كيف وأنا لا صلة لي بعرب الأرض المحتلة، حتى أهلي كل ما فعلته للاتصال بهم هو إرسالي رسالة لهم أثناء احتلال قطاع غزة في حرب 56 مع أحد الضباط الأصدقاء، وأرسلت لهم بعض النقود والملابس، ولم أتمكن من زيارتهم لشدة وطأة الاحتلال والظروف المعقدة جدًا أيامها، كما أن فترة الاحتلال لم تتعدَّ خمسة أشهر ولم تكن صلاتنا بمن ييسر الأمر قوية، كما أن خالي لم يرحب بفكرة زيارتهم، وكنت صغيرًا آنذاك. إذا كان هناك من يشترى السلاح فهم الأهل والأصدقاء في الضفة وغزة، أما نحن في الأراضي المحتلة منذ 48 فلا نستطيع شراء هذه الكمية الكبيرة، من الممكن أن أشتري مسدسًا أو رشاشًا وقد اشتريت

مسدسين ورشاشا في الغرفة السرية، لكن مئات الرشاشات والبنادق والقنابل، ماديًا من الممكن شراؤها، لكن أين أضعها وفيم أستخدمها، فستكتشف فورًا، فنحن في عمق العمق من الدولة، في مدينة يقطنها مائة وخمسون ألفا من اليهود، لو أستطيع إيصاله إلى الضفة وغزة، لكن السؤال لمن؟ لا بد من الاتصال بالأهل بغزة إذا أردت لهذا الأمر أن يتم، وأنا أريده أن يتم، كيف يمكنني الاتصال؟ لقد مضى على حرب الأيام الستة أكثر من سنة، لم يفكر أحد منهم بالمجيء والسؤال عني، بالتأكيد لهم ظروفهم، فما زالت الطرق مقفولة بين الأراضي المحتلة وبيننا أمام المدنيين، ليس من السهل التحرك دون تصاريح، نحتاج لوساطات خاصة، أرسلوا لي رسالة عن طريق الصليب الأحمر تحوي كلمات قليلة لا تشفي الغليل ووعد بالزيارة حين تسمح الظروف، لكن هل يغامرون بشراء هذه الأسلحة؟ وهل هناك تنظيمات فدائية حقيقية؟ ثم هناك أمر آخر، لماذا لا يكون تانامي مدسوسًا من الدولة كي يضعنا جميعًا في الفخ ويتخلصون منا؟ يجب على المرء أن يفكر جيدًا قبل أن يخطو خطوة واحدة، هل أعرض الموضوع على خالي؟ أخاف أن يخبر شلومو فعلاقتهما تتجاوز حتى حدود الصداقة ساعتها أكون قد أوقعت بتانامي من حيث أردت أن أخدمه، لكن ربما يغامر شلومو ويدخل بثقله في تجارة السلاح، إن ذلك مغامرة غير محسوبة مني قد تنسف كل شيء، فحساسيتهم من ناحية الأمن عالية جدًا، وقد يشي بنا شلومو ويهد المعبد على الجميع، فلأبعد عن طريق خالي وشلومو وأغامر على مسؤوليتي، وإذا كان تانامي مدسوسًا فسيتضح ذلك، إنه لا يقامر بحياته وهو يعرف مدى الحماية التي نتمتع بها، ثم إن معاملاتنا معه كانت دائما شريفة، لم نخدعه ولم نبتزه،

فلماذا يحاول الإيقاع بنا؟ هل نقحت عليه يهوديته بعد كل هذه السنوات من الأعمال المشبوهة! هل أتمكن من زيارة قطاع غزة؟ هناك بعض الأفواج السياحية التي ذهبت تتفرج على الأراضي المحتلة حديثًا، لكنهم يمرون وهم يركبون الباصات، يدورون في الشوارع والميادين دون أن يهبطوا، نبه عليهم بذلك حتى لا يتعرض أحدهم لطلقة رصاص أو طعنة سكين خاصة والنفوس ما زالت حامية والأوضاع متوترة، لا أريد زيارة مثل هذه الزيارات، أريد أن أزور أهلي الذين لم أرهم منذ عشرين سنة، آنذاك أستطيع تدبر الأمر معهم. إنها فرصة سأظل نادمًا العمر كله لو أهدرتها.

قلت لخالي: أريد أن أزور أمي وأبي في خان يونس.

تطلع نحوي صامتًا ثم عاد ليعد النقود دون أن يلتفت إليّ.

قلت: ما رأيك يا خالي؟ أشاح بيده ولم يرد. قبل موعد الإقفال قال لي: من حقك أن تزور أهلك فهم أهلي أيضا وأتوق إلى زيارتهم وسأفعل في وقت قريب.. ولكن لا أرى أن توثق العلاقة بهم الآن حتى لا نخسر مصالحنا هنا.

قلت: وكيف سنخسرها؟

- افهمني.. الثقة التي بنيناها هنا لا أريد لها أن تتزعزع.

قلت بعصبية: خالي.. أنسيت أن علاقتنا هنا كلها مع تجار مخدرات ومدمنين ومرتشين وأولاد كلب جاءوا من أركان الأرض الأربعة ليقيموا دولة على أنقاض وطننا بسبب غبائنا!

وضع يده على فمي صائحًا: كل ما تعلمته ولا يبدو عليك أنك تعلمت شيئًا!

- كل هذا لأني أريد أن أزور أهلي؟!!
- لا يا بني. أنا لا أقول لا تزورهم لكن لا توثق العلاقة. إنهم يرتابون في كل مواطني الأرض المحتلة ولا نريد أن نلفت الأنظار بعلاقتنا معهم حتى لا تحدث لنا مضايقات ونفتح الأعين علينا.

قلت: الكل يعرف أننا نتاجر بالمخدرات!

قال: يعرفون سرًا ويرتشون سرًا لكن إذا أحسوا بأن هناك من يعرّض أمن الدولة للخطر ينسون آباءهم ويبدأون في التصرف بعصبية قد تدفع الأصدقاء بالتخلي عنك.

قلت: أنا لا أريد أن أوثق صلتي بأهلي فالمرء لا يوثق صلته بجزء منه. هي رابطة دم ولا يمكن أن تتحول إلى رابطة ماء حتى عندك أنت. كل ما أريده هو زيارة لمدة يوم واحد أرى فيها أبي وأمي.. هل هذا كثير؟

انفرجت أساريره وتنهد بارتياح: قل ذلك منذ البداية، طمأنت قلبي. كنت أظنك ستمكث فترة طويلة أو قد يعجبك الحال فتبقى عندهم، على كل حال إذا كان الأمر كذلك يمكن استخراج تصريح لك على أن تعود في اليوم نفسه.

قلت: وهو كذلك. كيف ستساعدني؟

- الليلة تتعشى معي. سيكون شلومو ضيفي ونعرض عليه الموضوع.

علق شلومو حين أخبرته بالموضوع: يمكن أن ترسل لهم ما تريد إرساله دون الذهاب بنفسك خاصة في مثل هذه الظروف.

قلت: أريد أن أرى أمي وأبي فأنا لم أرهم منذ عشرين سنة. هل هناك صعوبة في استخراج تصريح لزيارة الأرض المحتلة؟

قال: الأمور لم تهدأ بعد. لكن الأمر ليس صعبًا على كل حال. لدي صديق في الاستخبارات العامة يمكن أن يساعدنا. اكتب لي بياناتك كاملة على ورقة وغدًا مساء يكون لديك التصريح.

* * *

أخذت في عربتي بعض الملابس منوعة المقاسات وبعض المكسرات والمعلبات وحملت مبلغ عشرين ألف ليرة. ودعت زوجتي وحملت صورة تجمعنا مع طفلنا الوليد.

ركبت العربة وسقتها جنوبًا. لم تصادفني متاعب أو مشاكل ولم يعترضني أحد حتى وصلت إلى مدخل مدينة غزة، كانت الشرطة العسكرية تسد الطريق أمام صف من العربات.

أمروني بالنزول، فتشوا العربة والحقائب والأكياس واطلعوا على التصريح وسمحوا لي بالمرور. حينما أعطاني شلومو التصريح قال لي: تمر على مركز بوليس غزة - تسأل عن يعقوب باسير. كلمته عنك تليفونيا أمس. سيساعدك.

قررت أن أتجاهل نصيحة شلومو، وسرت على الطريق الرئيسي، لكن بعد فترة شعرت بوحشة وبالخوف وعجبت لهذا الإحساس، أنا هنا في بلدي وبين أهلي فلماذا الخوف؟ القلة من السائرين في الشارع، تطفح نظراتهم بالكراهية لكل ما هو يهودي وقد ظنوني يهوديًا، الأماكن كأنها قصفت بالأمس، متجهمة غضبى وخربة، ذكرتني بعملية غزو يافا قبل عشرين عامًا، لم أكن أتوقع أن أرى هذا التدمير، لم نسمع به، أحيانا يحس المرء بأن المكان يحبه ويحتضنه وأحيانا بأنه ينبذه ويكرهه ويتباعد عنه لا يألفه، إحساس ينتقل من المكان للإنسان ومن الإنسان للمكان. أردت أن أصرخ في الناس وفي الأماكن بأني عربي فلسطيني. أبطأت العربة، تجاهلتني نظرات البعض ورمقني البعض بكراهية، لم أجرؤ أن أسألهم عن الطريق، قررت فجأة أن أرى يعقوب بيسار، أين مركز البوليس؟ أيضا لا بد من السؤال، نظرت في المرآة، إن هيئتي لا تختلف عن أي يهودي، أو أي عربي، لكن سيارتي تحمل أرقاما عبرية، لو سألت أحد العرب قد يظنني يهوديًا ربما أتعرض لاعتداء على حياتي نتيجة لسوء فهم، توقفت على يمين الطريق مترددًا، وحين لاحت عربة شرطة قادمة، وهي عربات لا ينتهي تجوالها كما لاحظت، نزلت من السيارة وأشرت لها، توقفوا، سألتهم البوليس، قالوا: اتبعنا، أدرت العربة وتبعتهم، ساروا في شارع طويل معظم محلاته التجارية مغلقة، مسافة كيلو متر أو أكثر، ذكرني بشارع اسكندر عوض، إن المأساة تتكرر. دخلوا ساحة مركز البوليس ودخلت وراءهم. أوقفت العربة، لحقني ضابط شاب وسألني عما أريد، قلت: أريد يعقوب بيسار. قادني إلى غرفة داخل المركز وأشار إلى شخص قائلًا: مقدم يعقوب بيسار. نظر إلى هذا عند نطق اسمه مستفسرًا، قلت: أنا أحمد الشواهدي الذي حدثك عنه شلومو.

نهض من وراء مكتبه، وتقدم نحوي ليحييني بحرارة، وأرادني أن أجلس، قلت: إني في عجلة فلا بد من العودة اليوم إلى تل أبيب، خرجنا من الغرفة وسرنا في الممر، قال: هل جئت وحدك؟ قلت: وحدي وها هي سيارتي تقف في حوش المركز. اتجهنا نحو السيارة، قال: ما هو العنوان الذي ستذهب إليه، قلت: خان يونس معسكر يافا الغربي بلوك 1 نمرة 53، دوّن ذلك في مفكرته قال: متى متعود؟ قلت: في المساء، نظر إلى عيني وقال: لا أنصحك بالذهاب في سيارتك.. سألت: لماذا؟ قال: السيارة بنمرها وعلاماتها إسرائيلية. أخاف أن يحدث لك شيء آنذاك لن أخلص من شلومو. خذ سيارة أجرة واترك سيارتك هنا، ابتسمت وقلت: وهو كذلك. رافقني إلى الباب الخارجي لمركز البوليس سألني إذا كنت أحتاج شيئًا، شكرته، كان قد أشار إلى سيارة أجرة. قلت للسائق بالعربية: أريد الذهاب إلى خان يونس. قال: أنا من خان يونس، تفضل.

نقلت الحقائب والأكياس إلى سيارة الأجرة وركبت بجانب السائق وانطلقنا، ولاحظت أن يعقوب قد دوّن رقم السيارة في مفكرته أيضًا. قلت: ما اسم هذا الشارع؟

أجاب السائق: هذا شارع عمر المختار على اسم الثائر الليبي، الأخ غريب؟

- تقريبا. إني ذاهب لزيارة أهلي في خان يونس.
- وسيادتك من أي بلد؟

قلت: من يافا. سألني: «وجاي من وين»؟

قلت: من يافا.

قال بدهشة: تقصد أنك ما زلت مقيمًا في يافا ولم تهاجر؟ من أهلنا في الأرض المحتلة؟!

ابتسمت: كلنا صرنا في الهم شرق..

- تنهّد قائلًا: هذه حال أهل فلسطين وهذا الذي جرى لهم.

سألته: وأنت.. من أين؟

قال: في الأصل من حمامة. هاجرت مع أهلي وأنا صغير ونقيم الآن في معسكر حمامة في خان يونس.

- وهل لكل بلدة معسكر؟
- كل بلدة يسكن أهلها معًا في مخيم خاص بهم. فهذا مخيم حمامة وذاك مخيم يبنا، وذلك مخيم الجلدية أو المسمية أو المجدل أو يافا.. وهكذا.

بعد لحظات من الصمت قال: انظر.. على شمالنا مخيم البريج يضم لاجئين من جميع قرى جنوب فلسطين، وعلى يميننا مخيم النصيرات والمغازي وهما مملوئان باللاجئين، أول مرة تأتي إلى القطاع؟

- أول مرة. لم أر أهلي منذ عشرين سنة.
- ستكون مفاجأة سارة لهم. من أي عائلة لا مؤاخذة؟
- من عائلة الشواهدي.

هتف بمرح: أعرفها. الشواهدي من يافا، أخي صديق لواحد من العائلة.. خميس الشواهدي، إنهما معًا في مدرسة واحدة. ابن أبو أحمد الشواهدي..

- أعتقد أنك تتكلم عن أبي وأخي.
- يا سلام على الدنيا! وأنت قادم يا أستاذ هل مررت بحمامة؟
- مررت، لكن كل القرى قد هدمت وبنوا مكان معظمها مستعمرات أحاطوها بالمزارع والكروم وأزالوا معظم المعالم العربية، فلن تستطيع سوى القول إنه كانت في هذه البقعة قرية حمامة أو يبنا أو غيرها.

تنهد وقال: لكن الناس لم تتغير يا أستاذ. بلادنا محفورة في قلوبنا.

وبعد لحظات صمت أخرى، سألني: ما رأيك يا أستاذ. كيف ترى الحل بعد كل ما جرى؟

لم أرد على سؤاله مباشرة بل سألته: ما اسمك يا أخي؟

قال: سعيد الحمامي.

قلت بعد لحظة: لا أدري يا سعيد. كنت أظن أن الأمور ستعود إلى وضعها الطبيعي حين أعلنت الحرب وإذ بنا نتأخر عشرين سنة أخرى.

صاح: ياه. فال الله ولا فالك يا أستاذ. عشرين سنة أخرى؟!

- لا أجزم. ولكن الله أعلم فالأمور لا تبشر بخير.

وسادنا الصمت. ولاحظت أن التجهم يعلو وجه الرجل، هل صدمته بحديثي؟ هل كان يتوقع أن أكذب عليه وأهون له الأمور وأمنيه بعودة إلى بلده بعد سنة أو سنتين؟

لكن قسمات وجهه عادت إلى طبيعتها مرة ثانية وهو يقول: هذه دير البلح.

وكانت أشجار النخيل الكثيرة تبدو على البعد، لكننا لم نقترب منها وظللنا في سيرنا على الطريق الرئيسي.

قابلنا بعد قليل حاجز للشرطة، يسدون الطريق ويفتشون العربات، سألني السائق: هل تحمل بطاقتك يا أخ أحمد؟

قلت: اطمئن معي واحدة.

قالوا للسائق: انزل. وأشاروا لي بالنزول أيضًا.

نزلنا، نظروا في العربة، قال شرطي لآخر بالعبرية: هناك شنط هل نخرجها؟

قلت بالعبرية: فيها بعض الهدايا. أنا ذاهب في زيارة خاصة. تستطيع أن تفتحها وتفتشها وترى ما بها.

قال لي: أرني بطاقتك. ناولته البطاقة والتصريح بالزيارة، نظر فيهما، وجس الشنط بسرعة وأشار لنا بالمرور، تنهد السائق وتنفس الصعداء.

قال: سيادتك تعرف عبري ممتاز.

قلت مبتسمًا: من عاشر القوم..

سألني: وهل أنتم مرتاحون هناك؟

- إذا كنتم مرتاحين هنا نكون نحن مرتاحين هناك!
- والله لا أحد مرتاح. ها نحن على مشارف مدينة خان يونس. هذه مدرسة خانيونس الثانوية العلمية وهذه

مدرسة حيفا الثانوية للبنات وهذا مركز البوليس الذي نسفه اليهود سنة 55 وحصل بعدها عبد الناصر على السلاح من الكتلة الشرقية. وهذا ميدان مصطفى حافظ القائد المصري. قائد الكتيبة 141 فدائيين التي دوخت إسرائيل. وقد نسف اليهود تمثاله مرتين بعد أن نسفوه هو بطرد ملغوم. وهذا شارع جلال الذي تغير اسمه إلى شارع الوحدة. بيتكم في آخر البلدة من الناحية الغربية. نحن الآن في شارع البحر وبعد قليل تبدأ مخيمات اللاجئين على الجانبين.

أحسست أن قلبي يعتصره الحزن والألم، سكان فلسطين في المخيمات واليهود يرتعون في بيوتهم وأراضيهم، قلت: لا تسرع. أريد أن أرى الناس والشوارع. تخيل أننا قد نمر بأحد أقاربي أو أخوتي فلا أعرفه ولا يعرفني.

بعض الدكاكين قد فتحت أبوابها، الناس في الشوارع حزينة، تسير متثاقلة تجر أقدامها، عربات من كل الأنواع، مقاهٍ ومحلات بائسة على الجانبين، لو لم أنزل من الباص ذلك اليوم لتجددت حياتي في هذه المدينة الصغيرة، ولتغير مستقبلي تمامًا، لكنه القدر والظروف. أشجار على جانبي الطريق، يبدو أننا قد خرجنا عن نطاق المدينة، استاد رياضي على اليمين ومدارس على الشمال. قال السائق: مدرسة عبد القادر الحسيني، مستشفى ناصر، مدرسة الحوراني.. سألت: من هو الحوراني؟ قال: ناظر المدرسة. لا نعرف اسم المدرسة فأطلقنا عليها اسمه. ها هو مخيم يافا الغربي لا تستطيع السيارة الدخول فالأزقة ضيقة وترابية. سنقف هنا..

أوقف العربة. دكاكين مبنية من اللبن على الجانب الأيمن، وعدة مقاهٍ متوالية عليها بعض الجلوس. لم نلفت انتباه أحد. على الجانب الأيسر دكان حلاق اقتطعت من غرفة من بيت قرميدي من دور واحد، يجلس أمام الدكان بعض الأشخاص، نادى السائق على أحدهم قائلًا: يا أبو حلاوة تعال ربنا بعت لك رزقة. هرول نحونا رجل طويل القامة يلبس سروالًا ويضع عمامة على رأسه، حافي القدمين كبيرهما قائلًا: أي خدمة؟ قال له السائق: احمل هذه الشنط إلى بيت أبو أحمد الشواهدي وأوصل الأستاذ إلى هناك. قال: على عيني. حمل حقيبة على كتفه وأخرى بيده، وحملت أنا الأكياس الموضوعة في شنطة شبكية كبيرة في يدي وقلت للسائق: كم تريد؟ قال: لا أريد شيئا. حمدا لله على سلامتك. قلت: لا يمكن لا بد أن تأخذ، قال: والله لا آخذ شيئًا. نحن أهل يا أستاذ. أدار عربته ومضى، ولحقت أنا أبو حلاوة الذي دخل زقاقا بين بيتين قرميديين من دور واحد، كل البيوت قرميدية ومن دور واحد ومبنية بالطوب الأسمنتي، تقف متخاذلة، تخرج منها نتوءات يبدو أنها أضيفت إلى المبنى الأساسي مما جعل الأزقة متعرجة، تهب منها روائح كريهة، مجموعات من الأطفال تتسلق مجمعات القمامة الملاصقة للبيوت، تلعب فيها مبعثرة محتوياتها مشاركة في ذلك أعداد البط والدجاج، قاذورات حيوانية وآدمية منتشرة على الأرض أمام أبواب الصفيح وتحت النوافذ التي تشبه كوى السجون، وصلنا ساحة كبيرة في طرفها صف من البيوت وراءها تل رملي عالٍ تنمو عليه أشجار الكينيا والأكاسيا - وقف أبو حلاوة أمام باب من الصفيح قرأت على الحائط بلوك 1 رقم 53.

قلت في نفسي: إذن هذا هو البيت الذي استبدلتموه ببيتكم في يافا؟

وضعنا الشنط أمام الباب، أخرجت عدة ليرات وأعطيتها له، وضع النقود في جيبه دون أن ينظر فيها ودعا لي ومضى.

وقفت أمام الباب، شجرة جوافة تبرز أغصانها من فوق الحائط، والسكون يخيم على المكان. الساعة العاشرة والثلث صباحًا، خبطت الباب بيدي، جاءني صوت من الداخل من؟ فتح الباب شاب في حوالي السابعة عشرة من العمر. قال: أي خدمة؟

قلت: أليس هذا بيت أبو أحمد الشواهدي؟

قال: هو. ماذا تريد؟

قلت: من أنت؟

أجاب: أنا خميس ابنه..

قلت ببطء: يا خميس أنا أخوك أحمد.

صاح: أخي! وانطلق جريًا إلى الداخل، سمعته يصيح: أمي. أمي. أخي أحمد جاء. وعاد ليحتضنني. قلت له: أدخل الشنط. دخلت حوش البيت، أربع غرف تحيط بالحوش، شجرة ياسمين تعرش على المكان، بعض أشجار الفاكهة، ورأيت أمي في المطبخ، تحاول أن تقف لكن قواها تخونها، انحنيت عليها أقبلها وهي تحتضنني وتبكي لتبللني دموعها وهي تردد: إخص عليك يا أحمد. أهكذا تفعل بأمك؟ يا خميس إجري بسرعة نادي أبوك.

خرج خميس جريًا، وأمي تتحسسني كأنها لا تصدق أنها تراني.

والتم شمل العائلة، خالات وعمات، أخوال وأعمام، أولادهم وبناتهم وأحفادهم، أدرك أبي الهزال، كبر بأسرع مما توقعت، دارت رأسي من كثرة ما سمعت من كلام وأخبار عن الذين سافروا ولم يعودوا، وعمن لا تعرف أماكن إقامتهم والذين ماتوا.. وتحدثت كثيرًا أيضًا حتى أصابني الصداع. مر الوقت بسرعة، نظرت إلى الساعة، كانت المرة العاشرة التي أنظر فيها إلى الساعة.

قالت أمي: لماذا تنظر في ساعتك كثيرا؟

قلت: لأني أريد أن أعود اليوم، أنتم تعرفون أن الزيارات ممنوعة. ومائة واسطة حتى استطعت أخذ تصريح ليوم واحد.

علا الوجوم والحزن وجه أمي، قلت لأبي: أريدك يا أبي في كلمة.

انتحينا في غرفة جانبية وحدنا، أخرجت النقود ووضعتها في يده دون أن أقول شيئًا. قلت بعد لحظة: أريدك في أمر خاص وسري.

انتبه لي.. فأضفت: ما أخبار المقاومة عندكم؟

قال بدهشة: مقاومة؟ أي مقاومة؟!

قلت: المقاومة ضد الاحتلال.

قال بحدة: أنت مالك ومال المقاومة ضد الاحتلال. ارجع بالسلامة يا بني ولا توجع دماغك بهذا الكلام.

- يا أبي أحد أسباب مجيئي بالإضافة إلى رؤيتكم، هذا الموضوع، هل هناك أحد من أقاربي يعمل بالمقاومة؟ الأمر مهم وضروري..

قال بعصبية: أحمد. هل تعمل مع اليهود؟

- ما هذا الذي تقوله يا أبي؟ أين ذهب تفكيرك؟!. تحدثني وكأني غريب عنك!
- أنت فعلًا غريب عني. عشرون سنة لم أرك ولا أدري ما فعلت بك الأيام!

نفخت غيظًا، ونظرت إلى ساعتي وقلت: لا تجعلني أندم أني تحدثت إليك.

أطال النظر إلي كأنه يحاول اختراق أفكاري، حدق في عيني ثم احتضنني قائلًا: والله يا بني لا أعرف شيئًا. الدنيا مقلوبة عندنا ودماغ الواحد مثل خلية النحل.

قلت: الموضوع باختصار يا أبي، وأرجو أن يظل سرًا، أن بطرفنا بعض الأسلحة نريد أن نسلمها للمقاومة. أفهمت؟ أريد أن أتصل بأحد تثق به لا يخونني ولا يخونكم ويكون على مستوى المسؤولية.

علت الابتسامة وجهه: طمأنت قلبي يا بني. هناك كثيرون. قوميون عرب. فتح. بعثيون. شيوعيون. ويقولون إن جميع الأحزاب توحدت في جبهة وطنية واحدة.

- المهم أن تنصحني برؤية واحد عاقل رزين تثق به. أنا لا أفرق بين أي من هؤلاء فكلهم وطنيون مخلصون. أريد محادثة واحد فقط تستريح إليه وتثق به أكثر من الآخرين.

فكر قليلًا ثم قال: أعتقد ابن خالك محمد أو ابن خالتك نزار... فكلاهما رجل يمكن الاعتماد عليه وهما في المقاومة.

- من منهما أكبر سنًّا من الآخر؟
- أعتقد أن نزار أكبر من محمد.
- أريد أن أراه.

دخل نزار الغرفة، سلّم علي مجددًا، قلت له: ما أحوالك يا نزار وما أحوال الجبهة الوطنية؟

هز رأسه، قلت: اسمعني جيدًا يا نزار، لا بد أن أغادر الآن وقبل أن أحدثك أقسم أن يظل هذا الأمر سرًا لا تبوح به إلا لقادتك في المقاومة، لن أسألك عن أي شيء. هناك كمية كبيرة من السلاح سأشتريها ثم نتحاسب بعد ذلك. من الممكن أن تصلكم في أي مكان تريدونه داخل الضفة أو غزة، سيوصلها أصدقاء قد يكونون يهودًا، حين تصلكم انقلوها فورًا ووزعوها في أماكن مختلفة، كل ما أرجوه أن تعلموني بالعنوان الذي تريدونها عليه، ها هو عنواني وتليفوني احفظهما وأحرق الورقة. ظل صامتًا لا يتكلم، قلت: مالك «بلّمت». تكلم.

قال: فاجأتني. كيف سأرسل لك العنوان الذي تبعث عليه السلاح؟

- بالتليفون، بواسطة رسالة تقول فيها خالي يعيش في ذلك العنوان أو خالتي. أو بأي طريقة تراها مناسبة.
- ألا يكون في ذلك خطر عليك وعلينا؟
- لن يشكّوا في عنوان لأحد الأقارب في رسالة.

فكر قليلًا ثم قال: أجزاخانة الشواهدي شارع جمال باشا في يافا.

- بالضبط، لو كتبت رسالة فشارع هرتزل إذن.

قال: لن أكتب رسالة ولن أستخدم التليفون. سيأتي أحدهم لشراء دواء من عندكم ويعطيك بعض الأوراق المالية. تأخذها وترتبها تصاعديا حسب أرقامها لا يهم التسلسل. ستجد على كل ورقة جزءا من العنوان، المشتري لن يعرف شيئا عن العنوان أو السلاح.

ودعتهم وعدت إلى يافا في الليلة نفسها.

كوّن تانامي رأس مال جيد، وانطلق في تجارة المخدرات وحده، لم أعد أراه. سمعت أنه فتح له منافذ توريد خاصة وأسواقًا يروج فيها بضاعته في أوروبا وأمريكا. لكنه لم ينعم كثيرا بثروته أو تجارته، ولا يعرف أحد من الذي قتله، سمعت الحكاية من شلومو، اكتشف جثته المتعفنة أحد الطلاب، كان مارًا بالقرب من دير اللطرون حين استرعت انتباهه رائحة عفونة، كانت جثة تانامي متحللة متعفنة بين الصخور ورصاصتان قد استقرتا في عنقه أطلقتا عن قرب شديد، وقيدت القضية ضد مجهول، لكني أشك أن لشلومو أصبعًا فيها، وربما للضباط الذين يرشونهم الدور الأكبر في قتله.

وقد كنت سألت شلومو ببراءة عن تغيب تانامي وتساءلت إذا كان قد نفض يده من التجارة، ضحك شلومو ساخرًا: نفض يده! لقد كوّن له شركة للتهريب إلى أمريكا، كان قد عبأ عربة بالمخدرات أراد أن يشحنها من ميناء حيفا. كانت العربة لسيدة أمريكية زارت البلاد وعائدة إلى الولايات بعربتها، واكتشفت العملية. ربما لم يسدد ثمن البضاعة فقتله أصحابها.

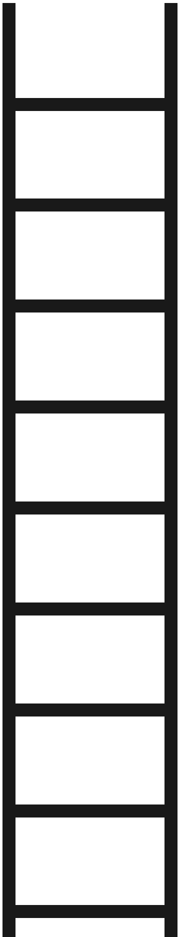

العنقاء
ووحيد القرن
في ملعب النمور

وصل الصيدلية متأخرًا، كان مصطفى النص يقف على الرصيف يراقب العاملين وهما ينظفان ويمسحان الزجاج، وقف بجانبه وسأله السؤال التقليدي: هل اتصل بي أحد؟

رد النص باقتضاب: الخواجة شلومو.

- ألم يقل شيئًا؟
- قال لا تنسَ الموعد اليوم في نادي عمر الخيام.

لقد نسي بالفعل، هناك صفقة صغيرة أعدا لها منذ يومين، لكن توالي الأحداث جعله ينسى، لذا لم يحضر البضاعة معه، ما زالت في الغرفة السرية في بيت أم عبده في البلدة القديمة.

اتصل بشلومو تليفونيًا، عرف أن الموعد في الحادية عشرة صباحًا، إنه دائما يحدد اليوم ولا يحدد الساعة إلا في اللحظة الأخيرة. بدأ يسير في الصيدلية قلقًا. كيف يجعل من هذه العملية آخر عملية مع شلومو، إن اللفافة هي آخر كمية موجودة لديهم في المخزن، لا يريد أن يخزن بضاعة جديدة بعد اليوم، لا يريد أن يعمل في هذه التجارة بعد الآن، لكنه يعرف أن الأمر لن يتم بالسرعة التي يرجوها أو بالطريقة التي يحلم بها.

ثم طرأت له فكرة، نادى على النص، قال له: أريد منك خدمة؟

ابتسم النص: ومتى تأخرت عنك؟

سرح قليلا قبل أن يقول: أريدك أن تذهب الآن لتقف في مكان يمكنك منه مراقبة الداخل والخارج إلى نادي عمر الخيام. الساعة الآن التاسعة، سأوافيك في الحادية عشرة إلا ربع.

قال مصطفى: أهذا كل شيء؟ هز رأسه وربت على كتف مصطفى بود. ركب مصطفى عربته الفولكس الصغيرة ومضى..

* * *

حمل الحقيبة التي تحوي البضاعة ونزل مسرعًا، لم يتعود أن ينقل بضاعة في النهار، أسرع في خطوه، سيارة مصطفى تقف تحت شجرة كينيا تخفيها عن القادم من الشارع الرئيسي، قرب مطعم البستان في مدخل البلدة العتيقة. اقترب. مصطفى يضطجع في المقعد الخلفي، يستطيع أن يرى من موقعه مطلع الشارع ونادي عمر خيام، النادي يفتح أبوابه ليلًا، يشكل مع المباني المحيطة تناسقًا جميلًا بجدرانه الحجرية التي يرجع تاريخها إلى العصور الوسطى، والأزقة القديمة، والمعالجة الهندسية بفنون القرن العشرين. في الداخل يجلس المرء على أرائك عربية مصنوعة من الخيرزان، ومرصوصة تحت شباك صيد معلقة على الجدران، شموع وإضاءة خافتة، تعمل عليه أمهر فرق الرقص في البلاد ويعرض فيه أشهر الفنانين. يراوده شك قديم أن لشلومو علاقة بأصحاب هذا النادي إن لم يكن

صاحبه، حاول خاله أن يغريه بالمشاركة في مشاريع كهذه إلا أنه تردد، يضع أمواله في أحد البنوك في الخارج، بسبب قلق دائم يساوره خشية ضربة مفاجئة من أولاد الكلب يومًا، سهر في النادي أكثر من مرة، في النهار لا يتواجد فيه أحد، لكن يستخدم أحيانا لإتمام صفقات أو بعض اللقاءات السرية الخاصة بأمور تجارتهم المشبوهة، يدخلون إليه من باب جانبي، هناك مداخل ومخارج عديدة كعادة الأبنية القديمة، بعضها غير مستخدم لكن يمكن للمرء أن ينفذ منها ويتسرب إلى الحي العربي فتتوه عنك الشرطة وسط الأزقة والبيوت الخربة. نادى على مصطفى، فانتبه فجأة، خرج من السيارة ووقف بجانبه.

قال: وصل شلومو في التاسعة والنصف في عربته المرسيدس البيضاء. دخل النادي وعاد السائق بالعربة. بعد ربع ساعة وصل صديقاك أنجيل وعاموس مكثا نصف ساعة وغادرا، ثم جاء آخر لا أعرفه يبدو أنه عربي وما زال في الداخل.

حضور أنجيل وعاموس يقلب كل ما فكر فيه من خطط، فهو لم يعرف أن لشلومو علاقة بهما أو حتى يهتم بمعرفتهما، أنسي أن عاموس كان ضابط شرطة هنا منذ عشر سنوات أو أقل؟ إنه سريع النسيان وطريقة تفكيره لا تعجبه، يبدو أن المثل القائل بأنه حين تم توزيع الأرزاق لم يرض أحد برزقه وعند توزيع العقول رضي كل امرئ بعقله مثل خاطئ، فهو لا يعجبه عقله، انتبه على مصطفى يقول له: لا تواخذني أما زلت في حاجة إلى النقود؟ تطلع إليه مستنكرا سؤاله، لكن مصطفى أضاف: هل لا بد أن تظل تتاجر في هذه المادة أليس معك ما يكفيك من النقود؟

قال بعصبية: ألا يعجبك العمل معي؟

أمسك بنفسه قبل أن يتهور في خطاب مصطفى الذي قال:

- وصية والدي ألا أتركك مهما حدث. كان دائمًا يوصيني بك وأنا أخاف عليك وأتمنى أن تتوقف.

رسم ابتسامة على شفتيه وقال: عد إلى الصيدلية الآن ولنا حديث طويل بعد ذلك.

مرة واحدة من قبل، أشار مصطفى إلى طبيعة عمله، سأله مرة: لماذا تتاجر بهذه المادة اللعينة؟ كرر عليه يومها القول الذي سبق أن أجابه به خاله ردًا على السؤال نفسه، هز رأسه ولم يجب، وها هو يلوح بالموضوع من جديد، وإنه لعلى حق.

ومن باب جانبي في زقاق فرعي دلف إلى النادي، الحارس يعرفه، أشار له إلى ممر صغير مضاء بشموع خافتة، قاده إلى غرفة يجلس فيها شلومو والشخص العربي، أشار شلومو إلى الحقيبة وهي ما زالت في يده قائلًا للرجل: ها هي البضاعة وليطمئن قلبك تمامًا.

قال الرجل: لو لم أكن مطمئنًا لما حضرت بنفسي. المهم أن أصل غزة دون مشاكل.

- سيوصلك أحد رجالنا ولن يعترض سبيلكما أو يفتشكما أحد.

دخل أحد العاملين في النادي وهمس في أذن شلومو بشيء.

قال شلومو للرجل: تستطيع أن تعود الآن. لقد رتبنا لك كل شيء.

فتح الرجل الحقيبة، اطمأن على المحتويات، أقفلها وتبع الحارس.

قال لشلومو: لماذا المغامرة والتعامل مع عرب الأرض المحتلة؟

أشعل سيجارة وتناول علبة بيرة فتحها وأخذ رشفة، ثم قال:

- اسمع يا أحمد. لم أسمح لنفسي أن أخبرك من قبل بأننا نمر بظروف صعبة، صعبة جدًا. ويجب أن نكرس جهودنا لتزيد منافذ توزيعنا في الداخل ثم في الدول العربية خاصة مصر. التهريب لأوروبا وأمريكا متعثر الآن بعد القبض على نيللو. خسرنا صفقة كبيرة بسبب ذلك. صفقة لم تكن أنت شريكًا فيها، لم أستطع أن أفعل شيئا له، أحد أعضاء شبكته خانه ووشى به، أنت تعرف أنهم كانوا يحضرون الهيرويين من تايلاند والواشي كان مع مندوبنا في فندق رويال ببانكوك وشهد شراء الصفقة وإدخالها البلاد، وصل الأمر لوزير الداخلية، واضطررت للتضحية بنيللو والبضاعة، خسرت مبلغًا كبيرًا، ولم يبق الآن إلا التوسع في الداخل والدول العربية. هل أدركت الموقف الآن؟

- لكن لماذا المخاطر بمقابلة الرجل بأنفسنا. فقد نتعرض للوشاية؟

قال باستخفاف: من عربي؟

ثم تدارك نفسه: لا تؤاخذني. لقد أردت أن أراه وأتحدث معه دون وساطة لأعرف طبيعة الظروف المحيطة به وبعمله ثم أردته أن يشعر بقوتنا حين نقابله هنا ونوصله إلى غزة دون تفتيش أو مسحوبات.. وأخيرًا هو لا يشكل مشكلة لنا.

- لكني غير مستريح.
- لا تشغل بالك. أنا أتكفل بكل شيء.
- ومن الذي سيوصله إلى غزة. عاموس أو أنجيل؟

نظر نحوه بدهشة، مرر طرف لسانه على شفتيه وارتشف قليلًا من البيرة وقال بلهجة حازمة:

- عاموس، هل لديك اعتراض؟
- رغم أنه صديقي لكني غير مستريح لإشراكه في الموضوع.
- ماذا جرى؟ إنك غير مستريح لشيء هذا اليوم، هل هناك أكثر أمنًا من أن يوصله ضابط بوليس يعمل في الجمارك في المنطقة الجنوبية ولا يتعرض للتفتيش؟ ثم كل شيء بحسابه وهو يهودي وأنا أدرى به.

قال له بلهجة جعلها تبدو مترددة: كنت أسهر معهما أمس وقد فاتحني أنجيل بموضوع جعلني لا أستريح له.

- هل أشار إلى تجارة المخدرات وبكيفية حصولك عليها؟ إن كل من يرغب في شراء المخدرات أيًا كان نوعها يستطيع أن يجدها في الصيدليات ودكاكين بيع الفلافل ومحلات الزهور وحتى الكيبوتزات وثكنات الجيش ودوائر الشرطة.

أراد أن يقول كل هذا بفضلك وفضل أمثالك، لكنه قال: ليس هذا ما يخيفني، طلب مني أنجيل أمس مساعدة مادية ليس بصفتي الشخصية بل يريدها من المنظمة، يظن هذا الأحمق أن لي علاقة بالمنظمة، أخاف طريقة تفكيره وقد يورطنا فيما لا طاقة لنا به.

ضحك شلومو، وعاد بجسمه ليستند على ظهر الكنبة، واصل ضحكه وهو يمسح وجهه بيده وقد بدت عليه أمارات الراحة..

- اطمئن تمامًا. أنجيل هذا أمسكه من رقبته كما تمسك اللصوص.
- لكني لا أمسك عليه شيئًا وأعتمد على وفائه بحكم صداقته لي.

زغر له بعين ماكرة: وما الفرق بيني وبينك، وليطمئن قلبك أكثر اسمع هذه الحكاية.. أتذكر أول كمية صدرناها من عقار الهلوسة السائل منذ سبع سنوات؟

- لا أذكر تمامًا فخالي الذي كان يتولى العمل كما تعرف.
- المهم. أنجيل كان يعمل وقتها مشرفًا على الحراسات الخاصة بمعهد ريجوبوت العلمي حيث يبحثون في كل المواد الكيميائية الخطرة والسامة والمخدرة، استطاع

سرقة دورقين صدرناهما إلى الولايات المتحدة بعد تعبئة المادة التي كانت فيهما في أقلام الحبر تبين بعد ذلك أن أحد الدورقين لم يكن يحتوي على عقار الهلوسة ومن حسن الحظ أن العينة التي جربناها كانت من الدورق الآخر الصحيح، أما الدورق الثاني فكان يحتوي على مادة كيمائية مصنعة معمليًا وخاصة بحرب الميكروبات وهي مادة تفقد الجسم مناعته ضد الأمراض، وقد جن جنون علماء المعهد والحكومة لاختفاء هذه المادة ولم تؤد التحقيقات بالطبع إلى معرفة السارق أو العثور على الدورق.

- وكانت هذه المادة الحاملة لفيروس الإيدز؟

قال شلومو ضاحكا: الله أعلم. جاءني أنجيل مضطربًا يريدني أن أعيد له الدورق لخطورة النتائج التي تتسبب عن استخدام المادة التي يحتويها. أخبرته أني أبدلت المادة منذ سمعت بالخبر. بالطبع نقل كل فريق الحراسات الخاصة وسرح أنجيل ولم يثبت عليه شيء، لكني أستطيع أن أبعث به إلى الجحيم لو أردت. فلا تخف منه، أما عاموس فإنه يأخذ حسابه مضاعفًا وهذا ما يهمه الآن... النقود.

ربت على ركبته وقال: اتصلت في راشيل هذا الصباح، ستأتي هي وزوجها خليل لزيارتنا وسيمر عليكم خليل في البيت الليلة. أبلغتني أن أخبرك.

وشرب ما بقي في العلبة من البيرة، وقال:

- الأمر المهم.. الصفقة الجديدة فهي مضمونه تماما ونصيبك فيها مبلغ محترم.. لذا أريدك أن تجهز لي شيكا بمبلغ...

وكتبه له على ورقة أمامه.

قال: إن شاء الله.

وهو في طريقة إلى الخروج قال له: أريده خلال يومين أو ثلاثة فأنا بعد الخسارة الكبيرة أحتاج إليه.

سار في الشارع، تبهر عينيه أشعة الشمس، يفكر فيما قاله شلومو، الأحداث تجره إلى بحر عميق لم يحسب حساب العوم فيه، كل شيء يسير الآن ضد كل ما يحلم به، كيف تغير إلى هذه الدرجة البائسة؟ ألم يكن يعرف منذ البداية أنه يسير في تيار لن يؤدي به إلا إلى الشقاء؟ قال لنفسه إنه لم يكن يعرف. غطت تفكيره الأموال والمخدرات، إنه يطلب مبلغًا كبيرًا، وهو لا يريد أن يشارك في صفقات جديدة، أيبيع الصيدلية وينفض يده من الموضوع كله؟ إن معه من النقود ما يكفل له أن يعيش حياة مرفهة هو وأولاده إلى آخر أعمارهم، لكن هل يتركه شلومو وشأنه؟ أيهاجر! لا يمكن أن يترك بلده، الظروف تختلف في حالته، ثم هذا العربي اللعين الذي اشترى البضاعة، لمن سيبيعها؟ لأهله في الأرض المحتلة؟ طوال حياته يتجنب التعامل مع العرب في تجارة مشبوهة، وحتى حينما شك الشيخ أبو العينين، أوصاه باتقاء الله في أبناء وطنه، ولم يكن محتاجًا لهذه التوصية، فمنذ البداية وهو حذر من هذه الناحية.

مند واجه طبيعة هذه الحياة بنفسه بعد وفاة خاله، وهو يحس أنه لم يخلق لها، الآلام النفسية تحاصره، والقلق طائر دائم التحليق فوق رأسه، وربما من هنا نبع اعتياده على المخدر، للهروب من نفسه.. كان خاله يعفيه من كثير من الصدمات، كان كالمخدر أمامه يلقي بكل المسؤولية على أكتافه، والآن إذا أراد أن يستريح فعليه أن يتصرف وفقًا لمشاعره وآرائه وما تمليه عليه نفسه.

وقف أمام نادي الكارافان الليلي خلف متحف الآثار، المنظر هنا رائع لمنطقة تل أبيب ويافا، كأنه لوحة لرسام مبروزة في إطار جميل، على يمينه وشماله جامعين أثريين ومئذنة طويلة في الخلفية والبحر من الغرب.

تنهد وتمتم: أفقدونا الاستمتاع بأي شيء. في كل منعطف يبرزون لك. في كل مكان تجدهم كبقعة سوداء تلطخ وجه اللوحة الجميل.

انحدر إلى أسفل الممرات الحجرية، تنتابه رغبة في المشيء منفردًا والانعزال مع أفكاره، إن ما قاله أنجيل بالأمس أمر مدبر، وما دامت هناك علاقة بينه وبين شلومو فليس من المستبعد أن يكون شلومو هو الذي أوعز له بقول ذلك، هل يشك شلومو به؟ وهل اطمأن قلبه الآن حين أخبره بحديث أنجيل؟ إن انشراح صدره وفضفضته بالحديث على غير عادته يشيران إلى ذلك، أو ربما لأنه يريد منه مبلغا كبيرا؟

الانقباض ينقضّ عليه ليمسك بخناقه، إن الله لن يتخلى عنه لأنه يعرف نواياه، لكنه يحتاج إلى صديق يفتح له صدره، بوفاة الشيخ أبو العينين فقد الإنسان الوحيد الذي كان يستريح له، كان جدارًا صلبًا يستند إليه كلما ضاقت به السبل أو حطت على رأسه الأزمات، أما الآن فوراءه كثبان من رمال متحركة، وأي خطوة خاطئة ستبتلعه وتنهال فوقه بكل ثقلها لتبعثه إلى عالم النسيان ملعونًا. زوجته؟ إنها لا تعرف شيئا عن مشاكله ومعاناته، وهو من ناحيته لم يحاول أن يشركها في شيء، وعدم معرفتها خير لها فهي حساسة وعاطفية ولا تتحمل أي صدمة مهما كانت تافهة، وشقيقها ابن خاله خليل، إنه أقرب في عقليته إلى اليهود، وزواجه من راشيل قضى على البقية الباقية من طبيعته العربية، هذا إن لم يكن قد تحول إلى اليهودية. هكذا

يشعر هو على الأقل، لذا لا يستطيع أن يبوح له بمشاكله أو حتى الشكوى أمامه. فكل ما يهمه هو أن يأخذ نصيبه من الأرباح التي تدرها الصيدلية بانتظام، ومنذ انضمامه لحزب راكاح الشيوعي هو وزوجته، دخل معترك السياسة وأصبح لا يصغي إلا لما يهتم به من موضوعات.

لكن مصطفى النص ابن شيخه أبو العينين، شخص آخر، كلما فكر في هذا الولد ازدادت محبته له وخوفه منه، ورغم أنه يكبره بعقدين من السنين فإنه ما زال يعتبره ولدًا، لأنه شهد مولده ونموه منذ كان كعقلة الصباح حتى أصبح في طول عقلتي قصب كبيرتين، لكنه رجل ويمكن الاعتماد عليه.. أما أولاد الكلب، فبعد سنين طويلة من العشرة والصداقة ها هم يحاولون الإيقاع به، وتوريطه بأن له علاقة بالمنظمة، لا بد من إبلاغ المنظمة عن الشخص العربي الذي اشترى المخدرات حتى يرسلوه إلى المكان الذي يستحقه، كيف يمكن معرفة اسمه وعنوانه؟ صعد السلالم إلى الحي العربي القديم، اتجه إلى جامع البحر حيث صلى الظهر واتخذ طريقه إلى بيت أم عبده. ما زالت المرأة السبعينية تصعد السلالم وتهبطها ذاهبة إلى زوجته في البيت، لا تكلفها بشيء، لكنها متعلقة بالعائلة فلم يبق لها أحد. دفع الباب لكنه كان مقفلا، خبط الباب بيده عدة مرات وهو يدرك أن أم عبده كانت ستتركه مفتوحًا لو كانت موجودة.

عاد أدراجه إلى حيث ترك عربته، ساقها في شارع يافيت، نسي اسمه السابق، لم يكن شارعا قبل أن يهندسوه ويجعلوه شارعًا يختنق العرب بيهوديته.

وعاد التساؤل يلحّ على ذهنه، هل من السهل أن يترك شلومو أو يتركه شلومو؟ لو تركه فلن يدعه يعيش في سلام، ولو نصب له شركا ليوقعه فيه فقد يجره معه، ثم إن علاقاته

كثيرة ومتشعبة، قد يفلت بسهولة ويلصق به كل شيء، يعرف أن هناك عدة رجال مثل شلومو، قسموا العالم إلى مناطق بينهم، ويعرف أن بعضهم يهرب المخدرات إلى الدول العربية، وها قد جاء الدور عليهم ليساهموا في عملية التخريب المخططة هذه، كان دومًا يبرر لنفسه أنه يقوم بعملية تخريب ضد هؤلاء المستعمرين المستوطنين، أما الآن فكيف يبرر الأمر، تردده يكاد يبعث الشلل في أوصاله – لا بد أن يكون هو نفسه، العربي الفلسطيني.

دخل الصيدلية ساهمًا وطلب فنجان قهوة، جاء الولدان، اندفعا إلى الداخل يريدان نقودا، أعطاهما ما يطلبان. قال وليد أكبرهما: أبي سنأخذ العربة ونوصل أم عبده إلى البيت القديم.

قال: لا. ستمكث عندنا بقية اليوم، فخالكما خليل سيزورنا الليلة.

قال رفعت: سنوصلهما بعد السهرة إذن.

لوح لهما بيده، فخرجا يجريان.

قال مصطفى: أطفئ السيجارة. إنها تكاد تحرق أصابعك. ماذا جرى؟

ألقى بالعقب المحترق على الأرض وداسه بقدمه. هرول العامل ليكنسه بسرعة.

كرر مصطفى قوله: ماذا جرى؟

تطلع إليه، أراد أن يتكلم، أحس أن الكلام يقف في حلقه لا يريد الخروج، شرب كوب الماء المرفق مع فنجان القهوة، وقبل أن يتكلم وصل الصيدلي المسؤول الذي عيّنه بعد

وفاة خاله، يأتي في الثانية مساء وحتى السادسة، أي قبل موعد الإقفال بساعتين، لم تعد الصيدلية تقفل في فترة الظهيرة. طلب من مصطفى أن يرافقه.

بدأ يدور في شوارع يافا صامتًا، كان على وشك البكاء لا يدري ما أصابه، حاول مصطفى أن يكسر الصمت بالسؤال عن المكان الذي يذهبان إليه، لم يكن هو يدري أين يذهب، يريد إجازة يقضيها في مصحة نفسية، في المصحة سيعالجه اليهود، يدخل مصحة في الخارج، قد يستريح، لكن ماذا بعد ذلك؟ إنه يحاول الهرب من المشاكل بدل مواجهتها، والهرب من نفسه بدل صراعها وحسم الأمر. بعد لحظات، وجد نفسه يحكي لمصطفى كل شيء.

ضحك مصطفى وقال: الأمر أبسط مما تتخيل. لماذا تعقد الأمور؟ وتوقف لحظات قبل أن يضيف: إذا أردت أن تتخلص من كل متاعبك وتترك هذه التجارة نهائيا فليس هناك سوى حل واحد.

نظر إليه ساخرًا، لكنه فاجأه بما لم يخطر بباله، قال: التخلص من شلومو.. وسارع يضيف: ولا تظن أن ذلك صعبًا.

دوت الكلمات في أذنه كالرعد، التخلص من شلومو، قال ببطء: هل تظن أن أعوانه سيتركوننا؟..

- أنت أحد أكبر أعوانه. ممن تخاف؟ هل تعرف أحدًا غيرك يتعامل معه شلومو؟
- لا..
- إذن هم لن يعرفوا.. إن شلومو حذر وهذا لصالحنا.

قال: حديثنا خفف قليلًا من الضيق الذي أشعر به. تعال لنتغدى سويًا..

* * *

قبل أن يغادر مصطفى البيت، جاء خليل، وصل مبكرًا، وما كان يريدهما أن يلتقيا. سلم خليل على مصطفى وقال له: البقية في حياتك. لم أعرف سوى اليوم. فاعذرني لعدم مجيئي لتعزيتك.

تمتم مصطفى بكلمات غير مفهومة وجلسوا صامتين، شعر خليل بتوتر الجو فحاول أن يخفف من حدته، فقال: ما أخبارك يا مصطفى؟

رد مصطفى وهو يرسم ابتسامة على زاوية فمه: عال.. ما أخبار راكاح؟.. ألا يفكر أعضاؤه اليهود بالرحيل عن البلاد؟

- ولماذا يرحلون؟
- ألا يقولون بأنهم يؤيدون الحق الفلسطيني؟
- وهل من يؤيد الحق الفلسطيني تطلب منه الرحيل عن البلاد؟
- أنا أؤدي لهم خدمة لن ينسوها. فأنا أشفق عليهم من البقاء هنا إلا إذا كنت تعتقد أن هذه البلاد لهم؟

اتجه خليل إلى أحمد قائلًا: شيء غريب هذا الذي يحدث. لا يتطاول العرب بالهجوم إلا على من يؤيدهم!

- وأين هم الذين يؤيدوننا؟ إن الكل يكاد يبوس أقدام الصهاينة ليتفضلوا علينا بدولة في الضفة وغزة وهم يرفضون.

- إذا استطاعوا أن يفعلوا ذلك وسيحدث.. تكون المشكلة قد انتهت بسلام.
- أي سلام؟ هذا البيت الذي يعيش فيه ابن عمتك اغتصبته أربع عائلات صهيونية تحت سمعه وبصره. وهذه المدينة التي فتحت عيني عليها ورأت عيون أبي وأجدادي النور على أرضها، هل تظن أنه يمكنني أن أقتنع بأنها ليست مدينتي؟! أو أنه لكي أنعم بالسلام عليّ أن أرضى بالتفريط بجزء من وطني أقتطعه من لحمي ليعبث فيه شذاذ الآفاق كما يشاءون تحت حجج واهية من الأساطير والخرافات. مهما كانت قوتهم فهم يحلمون إذا ظنوا أن الأمور قد استتبت لهم. عن إذنكم.

اندفع مصطفى خارجًا، بينما همس خليل: لا أدري كيف تتعامل مع هذا المجنون في الصيدلية!

* * *

امتدت السهرة حتى التاسعة والنصف، كان الولدان قد أخذا السيارة في وقت مبكر، بحجة توصيل أم عبده ومصطفى إلى الحي القديم، ولم يرجعا بعد، بينما نهض خليل وهو يقول: عندي موعد في العاشرة مع بعض الأصدقاء هنا. ما رأيكما أن ترافقاني لنسهر سويًا.

قالت سعاد: إذا أراد أحمد الذهاب فليذهب.

كان في نيته الخروج، فجلوسه مع أفكاره يزيد من توتره، ولولا زيارة خليل لما مكث في البيت. زوجته لا تسهر. تنام من العاشرة، وقرر أن يصحب خليل. قالت زوجته وهي تقف بالباب: لا تتأخر علينا كثيرًا يا خليل.

هتفت وخليل يدير العربة: أين ستسهران؟

رد خليل: في مقهى اكسودس في مونمارتر المدينة.

والتفت إلى أحمد التفاتة سريعة، وقال: سأعرفك على شخصية جذابة. من كبار المثقفين لكن للأسف لا يكتب. وهو صديق لمعظم الكتاب التقدميين. اسمه بستانيني هل سمعت به؟

- لا.
- دخل السجن في تهمة لا أدري عنها شيئًا. ربما ظلمًا. وهناك استطاع أن يقرأ كل الكتب الموجودة في مكتبة السجن وهي ليست قليلة. عند خروجه اجتذب بثقافته وشخصيته المرحة صداقة معظم الكتاب خاصة التقدميين. يقضي معظم أيامه ولياليه جالسًا في هذا المقهى مكان التقاء البوهيميين في هذه الدولة، يشرب الفنجان تلو الآخر من القهوة ولا يتوقف عن التدخين. شخصية لطيفة.

ومشاركة في الحديث سأله: هل هو غني؟

- لا أعرف. لكن لا تنقصه النقود.

* * *

لم يكن المقهى مزدحمًا، البعض يشرب عصير الليمون في الخارج، وفي الداخل بعض الشباب يتناولون السندويتشات مع المرطبات، جو المكان مبهج بأضوائه وتنسيقه، دار خليل بنظراته حتى وقعت على رجل يجلس في ركن بصحبة اثنين، وكان الثلاثة يضحكون. صاح خليل: ها هم. ذلك هو بستانيني.

تهلل وجه بستانيني حين رآه وهتف: أهلًا بأستاذ الأدب. ظننت أنك لن تأتي.

وتوجه إلى أحمد بالحديث: تعال هنا بجانبي فأنا أحب أن أتعرف بالرواد الجدد. هل أنت من عشاق الأدب والرسم؟

قدمه خليل قائلًا: ابن عمتي أحمد الشواهدي. قارئ جيد ومحب للأدب وصاحب صيدلية الشواهدي في شارع هارتزل.

رحب بستانيني به وقال: إذن فأنت هو.

قال خليل: وهل سمعت عنه؟

ابتسم: بالنسبة لي هو أشهر منك!

قال أحمد بخجل: لم أكن أعرف ذلك.

مال نحوه وهمس في أذنه: لي حديث طويل معك.

وأضاف ضاحكا: لاعلاقة له بالأدب..

شخصية ظريفة، غير ثقيلة على النفس، يستريح لها المرء من اللقاء الأول، لكنه من ناحية أخرى يبدو غامضًا مليئًا بالأسرار، رغم وداعته ووجهه الطفولي فإن عينيْه ماكرتان تتلاشى في ابتسامته الدائمة حدة مكرهما.

جلس متوجسا مما يمكن أن يفاتحه به من موضوعات، لا تنقصه المشاكل حتى يضيف له هذا البستانيني بلوة أخرى. الآخران كانا أديبين لم يعلق اسمهما في ذهنه جيدًا، دار النقاش حول كتابين صدرا حديثا أحدهما لعاموس عوز «في أرض إسرائيل» والآخر لإبراهام يهوشع «بين حقّين»، لم يكن قد قرأ الكتابين، فلم يشترك في النقاش. قال بستانيني بلهجة قاطعة: من

متابعتي لأعمال الرجلين الروائية والقصصية فهما جيدان من الناحية الفنية. التكنيك الروائي. لكن عوز مزيف كبير مهرج.

يهوشع أكثر صدقا مع النفس منه. أتكلم من ناحية الأفكار التي يقدمها كل منهما في أعماله ونظرة كل منهما إلى الصراع العربي الإسرائيلي. هل قرأت رواية العاشق ليهوشع؟ إن هذه البلاد مقبلة على كارثة كبيرة إن لم يتدارك العقلاء الأمر. ما رأيك يا أستاذ الأدب؟

قال خليل: أنت متشائم اليوم. في رأيي أن...

واستطرد خليل في حديثه، بينما مال بستانيني نحو أحمد ليهمس بأذنه:

- ماذا فعلت مع يوسف آنو وعوزي آرامي؟

خال أن الرجل اختلطت عليه الشخصيات فظنه شخصًا آخر، لكنه أعاد كلامه ثانية، همسًا وببطء. قال له: وما علاقتي بهما؟

ابتسم ساخرًا وقال بخفوت: ألا تعرف أني كنت في السجن وقابلتهما هناك واعترفا لي بكل شيء؟ تسارعت دقات قلبه، توشك مصيبة جديدة أن تقع على رأسه، من هما هذين الشخصين وبماذا اعترفا له.. مصيبة لو كان الأمر يتعلق بالمخدرات، فخليل لا يعرف شيئا عن هذا النشاط. قال بوجل: وبماذا اعترفا لك؟

قال ببساطة وهدوء: بأنهما قتلا شريكك في الصيدلية.

قال: خالي إبراهيم؟!

هز رأسه بالإيجاب. قال: أقفل على هذا الموضوع الآن أرجوك. ألا تعرف أنه والد خليل؟

بانت عليه الدهشة، قال: كم أنا غبي، وأطلق من فمه صفيرًا حادًا قائلًا: يا لها من شبكة!

انتبه الحضور إليهما عند سماعهم الصفير، قال خليل: ألم تعجبك آراء أحمد؟

آراؤه جيدة. لم أكن أعرف أنه متعمق في الأدب إلى هذه الدرجة.

قال خليل: إنه مطلع جيد على الأدبين العربي والعبري. فيم كنتما تتناقشان؟

قبل أن يتفوه بستانيني بكلمة، فوجئ أحمد بزوجته تقف فوق رأسه، تعبيرات وجهها أذهلته، حتى أنه عجز عن النطق، أحس أن كارثة قد وقعت في بيته.

قال خليل: ماذا حدث؟

قالت: الولدان يا أحمد.

- ماذا جرى لهما؟
- في الحجز. اشتركا في مشاجرة ولا أعرف شيئًا غير ذلك.
- ومن أخبرك؟

ومن بين دموعها أجابت: ضابط اسمه رفاييل تسفي اتصل بي تليفونيا من مفوضية الشرطة وطلب مني أن أخبرك لتذهب إلى هناك.

علق بستانيني: كان بودي الذهاب معكما لكني أخاف أن يحتجزوني.

أوصلا الزوجة إلى البيت، وانطلقا إلى دائرة الشرطة. كان رفاييل ينتظره أمام الباب الخارجي للمفوضية، وحالما رآه اتجه إليه قائلا: رئيس الشرطة يزمع إلى اعتبارها قضية شروع في قتل.

- ما الذي حدث؟
- ألقت دورية القبض على الولدين يتصارعان مع مجندين خلف مراحيض موقف الاستقلال وهما يحملان سلاحا أبيض ـ قرن غزال.
- مع ولديّ؟ من قال ذلك؟
- اسمعني جيدا. لم يعترفا بشيء. قالا إنهما كان يدافعان عن نفسيهما حينما هاجمهما الآخران بغية الاعتداء على الفتاة.
- وهل هناك فتاة أيضا؟

ضرب يدًا بيد، ودخل على رئيس الشرطة يصحبه خليل ورفاييل.

قال رئيس الدائرة: ولداك يتزعمان عصابة للبلطجة في المدينة.

أجابه: لا يمكن. هناك خطأ ما.

- هذا ما تقوله الوقائع.
- أية وقائع؟
- هاجما شخصين أعزلين ولولا مرور الدورية لحدثت جريمة.

تطلع إلى خليل ثم إلى رئيس الشرطة: هل هذا معقول، لقد خرجا من المنزل منذ فترة وجيزة. كنا نسهر معا وذهبا ليوصلا امرأة عجوز إلى منزلها في البلدة القديمة. لا بد أن هناك خطأ ما.

- شهادة الشهود تقول غير ذلك.
- أي شهود؟ مَن هذان الرجلان؟
- جنديان في إجازة. جاء يقضيان سهرة في المدينة.
- لأنهما من الجنود فشهادتهما صادقة؟
- حوادث القتل في الفترة الأخيرة تدعم شهادتهما، بدأنا في تسيير الدوريات لشكنا أن هناك عصابة وراء عمليات العنف والقتل. ولداك أول الخيط.

قال بغضب: ابحثوا عن هذه العصابة إذا كان هناك ثمة من عصابة.. ولا تتهموا الناس جزافا لأنهم من العرب. أنسيت حوادث الحرائق الأخيرة ومن الذي ارتكبها؟ الولدان على وشك التخرج والالتحاق بالجامعة. هل تظن أن لهما أي علاقة بأي نوع من العصابات. هل يمكنني أن أراهما؟

دعاهما رفاييل إلى غرفته، دخلا منكسي رأسيهما، قال: ماذا حدث؟

قال وليد: كنا نسير في شارع هاياركون حين هجم علينا الرجلان. دافعنا عن أنفسنا، وصلت الشرطة. ألقيا السلاح وادعيا أننا هاجمناهما.

قال محاولا التماسك: ما الذي ذهب بكما إلى شارع هاياركون وإلى تلك المنطقة الموبوءة؟ ظلا صامتين، ومرت على ذهنه السنوات الأخيرة في دراسته الثانوية، حينما عرض

عليه خليل ذات ليلة، الذهاب إلى شارع هاياركون لاصطحاب فتاتين من الحانات المنتشرة هناك، رد عليه وقتها بأن الذهاب في وقت متأخر قد يعرضهما للطعن بغية السرقة من الفتيان الذين يسرحون أولئك الفتيات العاهرات، فحينما يتقدم الليل يختبئون في الحواري الفرعية وخلف مراحيض موقف الاستقلال للتربص بالزبائن، هل ما زال الوضع كما عهده؟ انتبه لأول مرة أن الولدين قد كبرا وأنهما كانا يسعيان وراء مغامرة نسائية، لم يرد إحراجهما. طلب منهما الانتظار خارج الغرفة وقال لرفاييل: أنت تفهم يا رفاييل ولا ترضى أن يذهبا ضحية لعمل لم يرتكباه لأنهما من العرب. إنهما كانا يقومان بمغامرة صبيانية. أتريد أن يتحطم مستقبلهما؟

قال رفاييل: هذا الرجل عنيف مذ نقل إلى هنا وهو يتصرف بطريقة تضايق الجميع عربًا ويهودًا ولا تستطيع شيئا معه..

سأله: أين مزراحي؟

- في إجازة لثلاثة أيام ولا أعرف أين يقضيها. لو كان هناك لما حدثت مشكلة.
- وحاييم؟
- في جولة. من الممكن أن أتصل به، لكنهما تشاجرا في الصباح.

لاحظ، بعد أن هدأ قليلا، أن رفاييل يحاول سد كل باب يمكن النفاذ منه، وسرى الشك في ذهنه نحو ما يهدف إليه هذا الضابط الذي يعرف تمامًا أن شلومو يدفع له مرتبا شهريًا، لن يطلب من شلومو التدخل مهما حدث، يريد أن يبقى الموضوع

في نطاق ضيق، ولا يريد لأحد أن يقدم له خدمة يطلب في المستقبل أضعافها على حساب راحته وأعصابه. فليجرب بابا آخر.

قال: لا أستطيع أن أترك الولدين ليقضيا ليلة واحدة في السجن. لا بد من الاتصال بمحامي.

وقف رفاييل وهو يقول: عندي فكرة. شهادة الرجلين هي التي تجعله يتمسك بعمل قضية لهما، فلو أقنعنا الرجلين بتغيير شهادتهما.. إني أحتجزهما رغم أنه أُمِر بإطلاق سراحيهما على أن يتركا عنوانيهما.

قال وقد فهم لعبة رفاييل: ابذل جهدك يا رفاييل. ادفع لهما أي مبلغ.

- في حدود ألف شيكل لكل منهما أو أكثر؟
- لا يهم المبلغ. تصرف.

أراد خليل أن يصطحبه ثانية إلى المقهى، لكن حالته النفسية جعلته يعتذر له. حين وصل مع الولدين إلى البيت، انزاح عن صدره وصدر والدتهما هم كبير، لم يكلمهما. دخلا غرفتهما، وجلس في الصالة يدخن قاطعًا أي محاولة للحوار معه من جانب زوجته.

* * *

مرت أيام ثلاثة، ثقيلة بطيئة، عانى فيها كثيرا من الفشل، لم يستطع معرفة من هو العربي الذي اشترى المخدر، ولم يلتقِ بأحد ممن يثق بهم يعرف يوسف آنو وعوزي أرامي، شلومو يدخل صفقة كبيرة ويريد منه مبلغًا كبيرًا، يريد أن يهربها إلى

مصر وكأن مصر تنقصه ابن الكلب هذا، ضيق على الولدين في الخروج والسهر والنزهة، فأصبحا يدخلان ويخرجان وتكشيرة كبيرة ترتسم على وجهيهما، ذهب إلى الطبيب ليكتشف أنه مصاب بمرض السكري.

الليلة موعده معهم في سهرتهم الأسبوعية. راودته نفسه بعدم الذهاب، والاعتكاف في المنزل وترك الصيدلية لمصطفى والصيدلي ليديرانها، ولكن وحين جاءت الساعة الثامنة وجد نفسه يتجه إلى الحي العربي القديم وبيت أم عبده.

صعد إلى الغرفة العلوية، استلقى على المرتبة تراوده الرغبة أن يحضر سلاحًا ويتخلص منهم ويدفنهم في غرفة المخزن السفلية على طريقة ريا وسكينة، لكن اكتشاف أمره ليس صعبًا بعد ذلك، كان يظن أن لا أحد يعرف بسهراتهم هذه، وإذ بشلومو يعرف، وقد يكون هناك غيره، أعطاه شلومو عيّنة من الصنف الذي سيصل من لبنان، أراده أن يجربها، وقد ألحّ عليه في طلب المبلغ مساهمة في شرائها، طالبه مرتين وهو يؤجل، يخاف لو تأخر عليه أكثر من ذلك أن يثير شكوكه، طمأنه شلومو بقوله إن الأصدقاء على الحدود اللبنانية سيسهلون دخول البضاعة، استطاع أن يغريهم بالتعاون معه بعد سنة من العراقيل والصعوبات التي واجهتهم بعد أن تم نقل وإيقاف الضباط السابقين لاكتشاف تعاونهم مع المهربين ومساعدتهم على تمرير بضاعتهم عبر الجدار الطيب كما يسمونه، كان من بينهم القائد المساعد في الشرطة القضائية في وادي جزريل، وكانت فضيحة كبرى لجهاز الأمن وقتها، وستظل الفضائح تتوالى، بعد سنة أو سنتين ستنفجر فضيحة أخرى، سلسلة من الفضائح المتوالية لن تنتهي إلا بانتهائهم.

يوسف آنو وعوزي أرامي، هل حقا صدق بستانيني بقوله بأنهما قتلا خاله، وما الذي يدفع رجلًا لا يعرفه إلى الكذب؟ كان في السجن واعترفا له في حديث سجين لسجين، هل كانا يتوقعان أن أقابله ويحدثني بسرهما؟ هل أسعى لمقابلته ثانية؟ هناك أشخاص أحس أنه لن يأتيني من ورائهم إلا المتاعب، وهو واحد منهم، فلأبتعد عنه، لكن كيف يمكنني أن أتأكد؟ هل هما خارج السجن أو داخله؟ يحتاج لفريق عمل للبحث عنهما وإيجادهما في هذه الظروف الصعبة، بإمكانه تكوين مثل هذا الفريق، لكنه يجزع بطبعه من هذه التصرفات ويخشى عواقبها. المشاكل تتراكم ولم يعد يحتمل هذا الإرهاق، يريد أن يستريح، ينفض يده من كل شيء، ويعرف أن عليه وحده يقع عبء خلاصه، وهذا التردد الذي يجتاحه، والدوران حول المشاكل دون مواجهتها، والبقاء في مكانه يتفرج على الأحداث تجرى كالأبله، ما هذا الخوار الذي حلّ عليه؟ يفكر بأشياء ويفعل أشياء أخرى.

دق الباب، يتركه عادة مفتوحًا من أجلهم، فلا يتوقع أن تقوم أم عبده بفتحه لهم، فهي لا تفتح بابها بعد الثامنة مساء، لو كانوا هم لدفعوا الباب ودخلوا كعادتهم، من الطارق يا ترى، قال بصوت عال: ادخل.

ثم عراه خوف مفاجئ، من أدراه بالطارق؟ أما كان من الأفضل لو احتفظ بمسدس قريبا منه تحت إحدى هذه الوسائد؟ تكرر الخبط على الباب، قام متثاقلا، نزل السلالم سائلًا من الطارق، جاءه صوت عرف فيه صوت عاموس. عاد ليقول: لماذا لا تدخل؟

- الباب مقفول.

هل هو الذي أقفل الباب أم أم عبده؟ لا يدري؟ كل ما يدريه أن إحساسا يدور في داخله، يهتف به أن كل هذا الوضع سيتغير، ينتظر شيئا ما، مصيبة، كارثة، صدمة، لا يعرف ما الذي سيتعرض له، إحساس ينتابه منذ أيام، ينام ويقوم وهو معه، ينغص عليه حياته، يحاول تفسيره وإرجاعه إلى مرضه، أو المشاكل التي أثارها الولدان، أو بسبب علاقته بشلومو، أو النقود التي سيدفعها، أو لضيقه من تصرفاته التي لا يقتنع بها، وربما بسبب ذلك كله، لو أن هناك صديق يقف بجانبه، يسمعه وينصحه بإخلاص، يبوح له بمتاعبه كلها ليخفف عنه، مصطفى عنيف قد يدمر كل شيء، كل هذا العالم حوله والذي يضج بالناس لا يجد فيه صديقًا واحدًا.

صعد السلالم مع عاموس، لم يحضر أحد سواه، ديفيد سافر إلى أمريكا، وأنجيل مشغول بأموره الخاصة وإعادة ترتيب بيته بعد الحريق.

جلسا صامتين، كان عاموس يفتح لفائفه ويخرج ما بها ليرصه على المائدة المنخفضة أمامهما، ما مدى وحدود علاقته بشلومو ومعرفته بطبيعة عمله؟ هل يعلم بأن هناك كميات قليلة من الحشيش مخبأة في الغرفة السرية؟ شبكة رهيبة هو ترس صغير فيها، هل يستطيع أن ينتزع نفسه منها دون أن يعود عليها بالخراب والدمار.

قال عاموس: لم تجهز العدة بعد!

أجابه: كنت أظنكم لن تحضروا، وقد صدق حدسي.

- يكفي حضوري. ألا أعجبك؟

قال وهو يعد الكوب: سنجرب الليلة صنفا جديدًا.

قال عاموس بمرح أنا مستعد. أتحفنا.

قال وهو يؤكد على الحروف: هل أوصلت الرجل والبضاعة إلى غزة سالمين؟

- أي رجل؟
- العربي - يوم الإثنين الماضي. ألم تكن هنا؟

قال بتوجس: من الذي أخبرك؟

- شلومو. ومن غيره؟
- وهل تعرف شلومو إلى هذه الدرجة؟
- لا أعرف سواه.
- هل تجلب المادة عنده؟
- عاموس منذ متى تعرفني؟
- منذ زمن بعيد، كنت في الصف الثاني عشر. كنت تسبقني بسنتين. تعرفنا أثناء مباراة لكرة السلة. لكن لم تتوثق علاقتنا إلا منذ عشر سنوات تقريبا. ما الذي تهدف إليه؟

شلومو قالها بنفسه، لا يهم عاموس سوى النقود، وقال هو يهودي وأنا أعرفه أكثر منك، سيكيل له بنفس الصاع.

قال: لماذا لا نتعاون معًا؟

ضحك ساخرًا: وماذا نفعل خلال العشر سنوات الماضية سوى أننا نتعاون معًا!

- أريد تعاونًا بشكل أكبر.
- ماذا تريد مني بالضبط؟

مد له الكوب الذي امتلأ بدخان الحشيش الأبيض، فأخذ نفسًا طويلًا.

قال له: كم دفع لك شلومو؟

- مبلغا بسيطا. ثلاثة آلاف..
- أنا مستعد أن أدفع أكثر..

حدق طويلًا في محدثه، سحابات الدخان تتلوى أمام نظرهما فتصنع حاجزًا وهميًا بينهما.

قال ببطء: أحمد، لا تنسَ أني ضابط إسرائيلي.

- لن أطلب منك أكثر مما يطلبه شلومو..
- آه. نقل البضاعة، يبدو أني سأصبح صبيًا لنقل المخدرات في هذا البلد اللعين!
- اطمئن. لن أدعك تنقل شيئًا. دلني فقط على الزبائن من التجار الكبار.
- هل أنت جديد في هذا الكار؟
- تقريبا. أريد زبائن من العرب وعلاقاتك جيدة مع هذا النوع من التجار.
- أنت واهم! كل صلاتي مقتصرة على طبيعة عملي. تحصيل الضرائب الإضافية على البضائع المستوردة والقادمة عن طريق ميناء اشدود لحساب تجار قطاع غزة. أعرف كثيرًا من التجار لكن معظمهم يحمل عني ذكريات ليست طيبة. لو عرفت ما يحيطني من مشاكل لعذرتني في قبولي العملية التي طلبها

مني شلومو. هل تعلم أن مطعم والدتي قد أحرق في أشكليون ولا أدري هل كان ذلك قضاء وقدرًا، مجرد حادث أو بفعل فاعل.. لكني خسرت كل ما وضعته فيه، فليس أنجيل وحده هو الذي في ورطة، وأنت تعرف زوجتي شوشانا ومطالبها التي لا تنتهي لولا ذلك لما قبلت عملية شلومو.

- مطالب الحياة كثيرة، ويمكنني أن أساهم في سداد بعضها، ولنبدأ بما تعرفه، التاجر الذي أوصلته إلى غزة، قل لي اسمه وعنوانه ودع لي الباقي.
- لا أعرف عنوانه، رفض أن أوصله إلى مقره، نزل في الشارع الرئيسي في غزة. أما اسمه فقد اطلعت على البطاقة بالمصادفة، وعلى العموم فهو ليس من التجار الذين أتعامل معهم في الجمارك.
- يكفيني اسمه الآن، وأنت ومهارتك بعد ذلك.

ثم استطرد: على فكرة أود أن أستشيرك، ما الذي تعرفه عن يوسف آنو وعوزي أرامي؟

رفع بصره ناظرا إلى السقف، نافثا دخان سيجارته وقال:

- هل تريد أن تستعين بهما؟ إنهما شخصان رقيعان، اعتقلتهما ذات مرة حينما كنت ضابطا هنا في يافا وراقبتهما لمدة سنة.
- كيف يمكنني أن أعثر عليهما؟
- حينما اعتقلتهما كانا يقيمان في حي هاتكفا في شمال المدينة. لا أدري إذا كان يقيمان هناك الآن أو أنهما في السجن. لا أنصحك بالتعاون معهما، فهما من النوع نفسه لمن يدفع أكثر.

- شكرا أنك حذرتني، فهناك من زكاهما لي. يبدو أنه يريد أن يخرب بيتي من البداية!
- لا بد أن تكون حذرًا، واعتمد عليّ في مثل هذه الأمور.

* * *

غادرا البيت في الحادية عشرة، ودع عاموس واتجه إلى بيت مصطفى الذي فوجئ بزيارته، وسر بها كثيرًا...

جلس منتظرًا أن يبوح بسبب هذه الزيارة المفاجئة المتأخرة التي لا تنتظر حتى الصباح.

قال له: ألا تعرف من يسميان يوسف آنو وعوزي أرامي؟

أجابه: لا لماذا تريدهما؟

- علمت أنهما قاتلا خالي إبراهيم.

قفز من مكانه صائحًا: معقول؟! كيف علمت؟؟

- لا يهم كيف علمت. أريد العثور عليهما لأتأكد من الموضوع، آخر مكان كانا يقيمان فيه هو حي هاتكفا وهما مشهوران بالإجرام...
- الأمر بسيط. حي هاتكفا مليء بالسفرديم الفقراء الذين يبيعون آباءهم من أجل شيكل.

قال بمرح: هل تستطيع يا مصطفى؟

- طبعا.

نظر في ساعته وأضاف: الوقت ما زال مبكرًا. غدًا يكون لديك الخبر اليقين سواء كانوا أحياء أو لا، في السجن أو خارجه. يقيمان في الحي أو غادراه.

- كيف ستتصرف؟
- اترك الأمر لي واعتمد على الله.

* * *

غادره والاطمئنان والقلق يتبادلان السيطرة على مشاعره، هل يستطيع التوصل إليهما؟ وإذا استطاع هل يعترفا له؟ أو يضطرهما للاعتراف؟ ربما يتعرض مصطفى للخطر، إنه يحبه ولو حدث له شيء فلن يغفر لنفسه.

* * *

استيقظ متأخرًا، جلس يتناول طعام إفطاره وهو يكرر في ذهنه اسم الشخص العربي الذي اشترى المخدر حتى لا ينساه. أخبرته زوجته بأن شلومو اتصل به الليلة الماضية مرتين، بالتأكيد يريد الشيك الذي يحمل المبلغ، مساهمته في العملية الجديدة، التأخير يصيب شلومو بالقلق.

قبل أن ينهي إفطاره، كان شلومو يفاجئه بالزيارة.

قال له شلومو وهو يجلس ويضع ساقا فوق ساق: ذهبت إلى الصيدلية فعلمت أنك لم تحضر بعد. فجئتك هنا. اعذرني. هناك أمور هامة علينا إنجازها.

انتظر قليلا حين دخلت الزوجة تحمل له فنجانًا من القهوة، أشعل سيجارة وقال:

عليك أن تسافر إلى مصر الليلة لتلتقي بالرجال هناك.

قال بدهشة: أسافر إلى مصر؟!

- من غيرك أعتمد عليه في هذه العملية؟ إنها نقودنا!
- لم أسافر إلى مصر من قبل وأنت تعرف ذلك.
- هناك دائما أول مرة. ستنزل في فندق هيلتون رمسيس. هناك سيقابلك عملاؤنا لتتفقا على كيفية تحويل النقود وتسلم البضاعة. العملية مضمونة مائة بالمائة. لو كان خالك حيًا لما تردد لحظة. هل تعلم أن اثنين من الضباط الذين كانوا يعملون على حدود لبنان منذ سنتين يشرفان على منطقة عبور جيدة في سيناء، البضاعة ستمر من لبنان عبر إسرائيل إلى مصر، ترانزيت. لن تكون هناك مشاكل بالنسبة لنا في التسلم والاستلام والتخزين.
- ومتى تصل البضاعة؟
- غدًا. دفعت جزءا من المبلغ للموردين والباقي سيدفع من نصيبك غدًا مساء عند عبور البضاعة الحدود اللبنانية. لن تمكث البضاعة عندنا سوى ساعات. ستعبر الحدود المصرية عند منطقة العوجة فوادي العريش حيث يتسلمونها هناك. أعد نفسك للسفر اليوم فالطائرة تغادر مطار اللد في الحادية عشرة مساء ولا بد أن تكون في مصر غدًا.
- لماذا هذه العجلة؟ أما كان من الأفضل أن نتأنى في ترتيبات التسليم والاتفاق؟

- كل شيء قد تم. لم تبقَ سوى الخطوة الأخيرة. ولا نريد أن يحدث ما يعطل العملية كلها، الآن هو الوقت المناسب. لا أستطيع أن أسافر إلى مصر بنفسي. أعطني الشيك.
- دفتر شيكاتي انتهى. وهذا ما أخرني عن إعطائك الشيك. سأذهب الآن إلى فرع البنك هنا لأحصل على واحد وأكتبه لك.

فكر قليلًا، ثم قال: سأنتظرك الليلة في الثامنة مساء بالضبط. سارة عند ابنتها راشيل في تل أبيب. نريد أن ننتهي من هذه الصفقة بسرعة.

سأل: ومن هم الذين سأقابلهم في القاهرة؟

سأبلغك بكل شيء. كل التفاصيل حينما تحضر في المساء.

* * *

غادر المنزل بعد أن تركه شلومو بقليل، كان كالكابوس الذي يحط على المرء دون إنذار، وصل الصيدلية، كان مصطفى يبيع لأحد الزبائن، رفع أصبعه الإبهام عاليًا علامة النجاح، انتظر قلقا حتى غادر الزبون وسأل مصطفى: هل توصلت إليهما؟

- واعترف الاثنان.
- لماذا لم تأت لتخبرني؟
- قلت أقابلك في الصيدلية، وحينما تأخرت فكرت في الذهاب إلى منزلك لكن جاء شلومو وسأل عنك وعرفت أنه ذهب إليك... فبقيت هنا.

- وهل عرفت منهما من حرضهما على عملية القتل؟
- شخص لن يخطر لك ببال..

توقف قليلًا قبل أن يقول: شلومو...

دار رأسه من المفاجأة. تهالك على الكرسى متسائلًا: ولكن لماذا؟ إنه شريكه وصديقه، هل أنت متأكد أنهما صادقان؟ اشرح لي بالتفصيل ما حدث وماذا قالا لك.

- بعدما غادرتني أمس أرسلت من يبحث عنهما للاتفاق معهما على عملية صغيرة. ضحيت بمبلغ خمسمائة شيكل مقدمًا لكل منهما. فجاء بأقدامهم.
- كل ذلك تم ليلة أمس؟
- مثل هذه المسائل لا تحل إلا بالليل. كنا ننتظرهم في كمين. وتحت التهديد اعترفا.
- تقول كنا... من أنتم؟
- اسمع يا أحمد.. لم يعد الإخفاء ممكنًا أو مجديًا معك أنت بالذات. نحن مجموعة من الشباب نكون فرقة للاغتيالات الفردية للصهاينة. نجعل أعمالنا تبدو كحوادث قدرية. نعمل في الليل وبحذر خاصة في شارع هاياركون حيث تقود فتيات الهوى زبائنهن إلى داخل الأبنية الخربة والأماكن المقفرة. ثم كل من يتطرف ويوقعه حظه بين أيدينا...

شعر كأن الدنيا تدور به، كمن كان أعمى وتفتحت عيناه، حوادث القتل الغامضة، الحوادث الصغيرة المقلقة، همس: كل هذا يطلع منك!

- معظم الشباب في الحي القديم يعرفون ويشاركون حتى الشيخ سعيد وعنات التي تقوم بأكبر دور في اصطياد الزبائن.
- قال بوجل: منذ متى وأنتم..؟
- فكرت في الموضوع منذ قضينا على الثلاثة الذين كانوا يهددونك. أتذكر؟

قال: وهل زبائن اليوم..

- اتكلا على الله...!

خرج صوته متحشرجًا من فمه: ما تقومون به...

قاطعه مصطفى: أعرف ما ستقول. لكنه عمل ليس أكثر خطرًا من تجارة المخدرات وهو عمل صغير بجانب ما يقوم به شعبنا في الأرض المحتلة ولبنان..

أشعل سيجارة، وتطلع إلى السقف وإلى مصطفى، إلى الشارع وإلى العاملين وضحك. دارت في ذهنه أحداث كثيرة، تزاحمت واختلطت ككرة الخيط التي تشابكت خيوطها، نحاها عن فكره جانبًا، وكتب عنوانًا على ورقة وتأبط ذراع مصطفى وخرجا ليقفا أمام الصيدلية، قال: اقرأ هذا العنوان واحفظه جيدًا.

قال مصطفى دهشًا: إنه في الضفة الغربية. رام الله.

- فعلا؟
- وماذا تريدني أن أفعل به؟
- تذهب إلى هناك الآن وتقابل أي شخص في هذا العنوان. كلمة السر نزار. وتخبره بما سأقوله لك..

عادا إلى الداخل، جلس على كرسي ومصطفى يستند على زجاج المكتب أمامه، أحد العمال يرتب ويصف علب أدوية وصلت منذ قليل، وأرسل العامل الآخر ليحضر له فنجان قهوة من المقهى المجاور.

حكى لمصطفى عن الرجل العربي الذي اشترى المخدرات وعن عملية التهريب التي ستتم غدًا إلى مصر والمكان الذي سيتم فيه تسليم البضاعة.

قال لمصطفى وهو يختم حديثه: قل لهم إن الرجال في داخل الوطن المحتل 48 يطلبون منكم التخلص من تاجر المخدرات وأن تبلغوا السلطات المصرية عن عملية التهريب.

هيا يا مصطفى ليس لدينا وقت.

* * *

في السابعة مساء، توجه إلى البيت القديم في الحي العربي في البلدة العتيقة، صعد إلى الغرفة العلوية وهبط إلى الغرفة السرية، حمل مسدسًا محشوًا وأخفاه في طيات ملابسه وخرج.

ركب سيارته واتجه إلى بيت شلومو، يسكن في منطقة منعزلة هادئة، كم هي مفيدة العزلة والهدوء الآن.

كان شلومو وحده، لم يمكث عنده إلا بقدر ما عرف منه أسماء من سيقابلهم في مصر والمبلغ المتفق عليه. ثم تم كل شيء بهدوء. انحنى فوقه. لقد ذهب. انتزع الشيك من يده ووضعه في جيبه وخرج.

لا يعرف من أين نزل عليه هذا الهدوء. جلس في الصالة وطلب من زوجته أن تعد له كوبًا من الشاي، أخرج الشيك الذي كتبه قبل ساعة، أمسك بقداحته وأحرقه.

أول سؤال نطق به شلومو حينما دخل عليه: هل أحضرت الشيك؟

لا يستطيع أن يصف مقدار الراحة التي حلت بوجه شلومو حين أمسك بالشيك.

قال له: أنا مستعد للسفر.. ما اسم أولئك الذين سأقابلهم؟ ابتسم وقال له الأسماء ثم تم كل شيء.

ظل جالسًا في الصالة يدخن، وعيناه تتابعان الصفحات الأخيرة من رواية «موبي دك» لهرمن ملفيل، غير مصدق أنه تخلص من متاعبة مرة واحدة.

انتبه على صوت زوجته تقول: الأولاد لم يعودوا بعد.

تطلع إلى الساعة، كانت الحادية عشرة والنصف اضطرب ذهنه للحظات، هل تورطا في مغامرة أخرى؟ تمتم بصوت خافت: متى عادا يكون لكل حادث حديث، سيعرفان في أبيهما أبًا لم يعرفاه من قبل.

وظل جالسا يقرأ ويدخن تغفو عيناه، تغوص الأسطر وتطفو، تغوص وتطفو، النوم يداعبه، دقت الساعة معلنة منتصف الليل، انتفض واقفًا، زوجته مكومة على كنبة في ركن من الصالة، رواية ملفيل على منضدة أمامه مفتوحة على الخاتمة، صفحة واحدة وتنتهي الرواية، طوى الكتاب مع آخر دقة من دقات الساعة، وحمله ودخل غرفة مكتبه. أشعل النور واتجه إلى «بوفيه» ضخم من طراز نسي اسمه، تعلوه مرآة كبيرة، صدمته صورته في المرآة، وضع الكتاب ووقف لحظات يدقق في ملامحه، سنوات طويلة مرت دون أن يقف هكذا محدقا في قسمات وجهه، تقطيبة كأنه يراها لأول مرة تغطيه كالقناع، أين ابتسامته المشرقة تلك التي كانت تنعشه حينما يراها منعكسة في المرآة مرتسمة على محياه؟ كان الجميع يطلب منه أن يبتسم، كأنه يملك العالم كله آنذاك.

رفع يديه لتظهر صورتهما في المرآة، وابتسم، الابتسامة القديمة نفسها عادت إلى وجهه، ابتسم أكثر، ضحك، قهقه، أعاد النظر إلى يديه ثم إلى المرآة، ورأى صورة زوجته تقف وراءه.

التفت فواجهها، حدق فيها وابتسم.. ابتسمت..

قال: لقد اكتشفت الآن فقط أني أخدع نفسي لأكثر من ثلاثين سنة!

قالت: وهل يخدع الإنسان نفسه؟!

تمتم: هذا لغز النفس البشرية.

مشى إلى الصالة، تبعته، أمسك يدها قائلًا: سعاد..

قالت: الأولاد...

جرها من يدها إلى الحديقة الصغيرة، جلسا على المقعدين هناك، المكان ضيق يجلس فيه مذ كان صبيًا. أخذ نفسا عميقا وقال: أتشمين رائحة الزهور؟ هذا العبير لم أشمه منذ كانت أسرتي هنا. يافا عادت يا سعاد.

قالت: أو أنت الذي عدت!

استمر كمن يحدث نفسه: منعتهما من الخروج بحجة الحفاظ على أخلاقهما، كنت في الحقيقة أخاف عليهما، من عملهما مع مصطفى، أتغدو عاطفة الأبوة والتمسك بالحياة أقوى من الموت في سبيل الوطن؟ وهمٌ وخداع نفس أتفهمين؟ أردتهما أن يعيشا بدم فاسد كالذي جرى في عروقي كل تلك السنوات الطويلة.

ضحك بأسى واعتصر يد زوجته.

قالت: أولادي لا تجري في عروقهم دماء فاسدة..

تمتم: حتى لو أردت ذلك فلن أستطيع.

نهض، لمس أوراق الشجر، ملّس على الأغصان، جس التربة بقدمه.

قال: اليوم عيد. ستكون طقوس احتفالي به بأهمية المناسبة. فليس كل يوم يستعيد المرء نفسه. أريد أن أخرج.

قالت: في هذا الوقت المتأخر؟ هل تذهب لـ..

وضع يده على فمها. من يريد أن يغيب عن الوعي الآن؟ انتهى ذلك الزمن.

سأتمشى قليلا.

استدار.. وقعت عيناه على علبة طلاء على حافة النافذة المطلة على الحديقة. بقية من طلاء البيت، وكأنه كان يعده لاستقبال ميلاد جديد وبرقت في ذهنه فكرة، حمل العلبة والفرشاة وخرج، وعينا زوجته تتبعانه وشبه ابتسامة ترتسم على شفتيها، هزت كتفيها وقالت: فلسطيني!

سار في الشارع الخالي، خيل إليه أن صوت بائع الجرائد يصل أذنه مناديًا على جرائده.. فلسطين، الدفاع، أوشك أن ينادي على صاحبه سمير، صدمته اللافتة على الجدار «شارع شلومو»، رفع الفرشاة وطمس الاسم، هذا شارع الملك فيصل، اختفى شلومو، لم يتح فرصة للفرحة أن تغزو عينيه حين أصبح الشبك بين يديه.

مشى راقصا كما اعتاد أن يفعل صغيرًا، هذا شارع فؤاد الدجاني، وطمس الاسم العبري، شارع النزهة، عادت الأسماء إلى ذهنه صافية واضحة، اقترب من اللافتة «شارع هرتزل» ضحك، رفع الفرشاة وضرب أول ضربة، ظل الاسم واضحًا في ضوء المصابيح الكهربية القوية، هرتزل الذي قال «كان الأمر أسهل على موسى»، موسى كان مؤيدًا من الرب، ربنا الذي لا تعرفونه، اليوم سيكون كل شيء مستحيلًا عليكم،

وضرب بالفرشاة عدة ضربات، رآه بعض السكارى الخارجين من الحانات، لم يأبه بهم ولم يفهموا ما يفعله، قهقهوا وتابعوا سيرهم، واتجه إلى البحر يشطب أسماء الشوارع التي يمر بها، يافيت، هاياركون، هاكونشيم، في داخله صخب كبركان يعرف قوته على وشك أن يخرج صواعقه، طوَّح بالعلبة والفرشاة وسط أمواج البحر الهادئة وابتسم..

كم اصطاد الأولاد اليوم يا بحر؟

خلع ملابسه واندفع يعانق الماء.

- طهرني يا بحر، اغسلني يا بحر، اقذفني إلى الشاطئ مغفورًا لي كما قذف الحوت يونس على هذا الشاطئ قبل كم من السنين.

واندفع إلى الحي العربي القديم، يرتدي ملابسه وهو يجري، منحنيًا ليجمع بعض الحجارة في جيوبه، وبدأ يقذف بها نوافذ بعض البيوت المضاءة، يجري في الظلام، ووجوه العبرانيين تطل من النوافذ متسائلة، ورن في أذنه الصوت، صوت من الأعالي يقول لهم:

«وفي جميع أرجاسك وفواحشك لم تذكري أيام صباك، وإذا كنت لم تشبعي، زنيت مع بني أشور ولم تشبعي، فلذلك أقضي عليك بما يُقضى على الفاسقات وسافكات الدماء وأجعلك قتيل حنق وغيرة». ويواصل قذف الحجارة، يغلق العبرانيون نوافذهم خوفًا ويطلبون رقم دائرة الشرطة، والصوت يأتيهم من البحر، ويرن في أذنه «حياتكم في هذه البلاد كحياة رجل يصرّ على الإقامة وسط طريق مزدحم، تدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار، ومن بدايتكم لنهايتكم لم يكن ملككم سوى طارئ في تاريخ هذه البلاد».

وتطأ قدماه أول الطريق في الحي العربي، يمر على البيوت، بيتًا بيتًا، يطرق الأبواب، وينطلق إلى منطقة الحفريات الأثرية ليرقص رقصة الانبعاث.

يرقص ويرقص والعرق يتصبب من جسده، وتأتي عنات لتمسكه من يده، ينقاد معها رافع الرأس، وعلى التلال المحيطة بالمنطقة يقف الفلسطينيون ينظرون.

ولأول مرة منذ سنوات، يدق ناقوس الكنيسة، ويعلو صوت مصطفى يؤذن للفجر من مسجد الحي. واتجهوا جميعًا للصلاة.

صاح: أمّينا يا عنات في صلاة هذا الفجر.. في حمى هذه الصخور التي شهدت فجر تاريخنا...

تمت

أحمد عمر شاهين

أكتوبر 1988

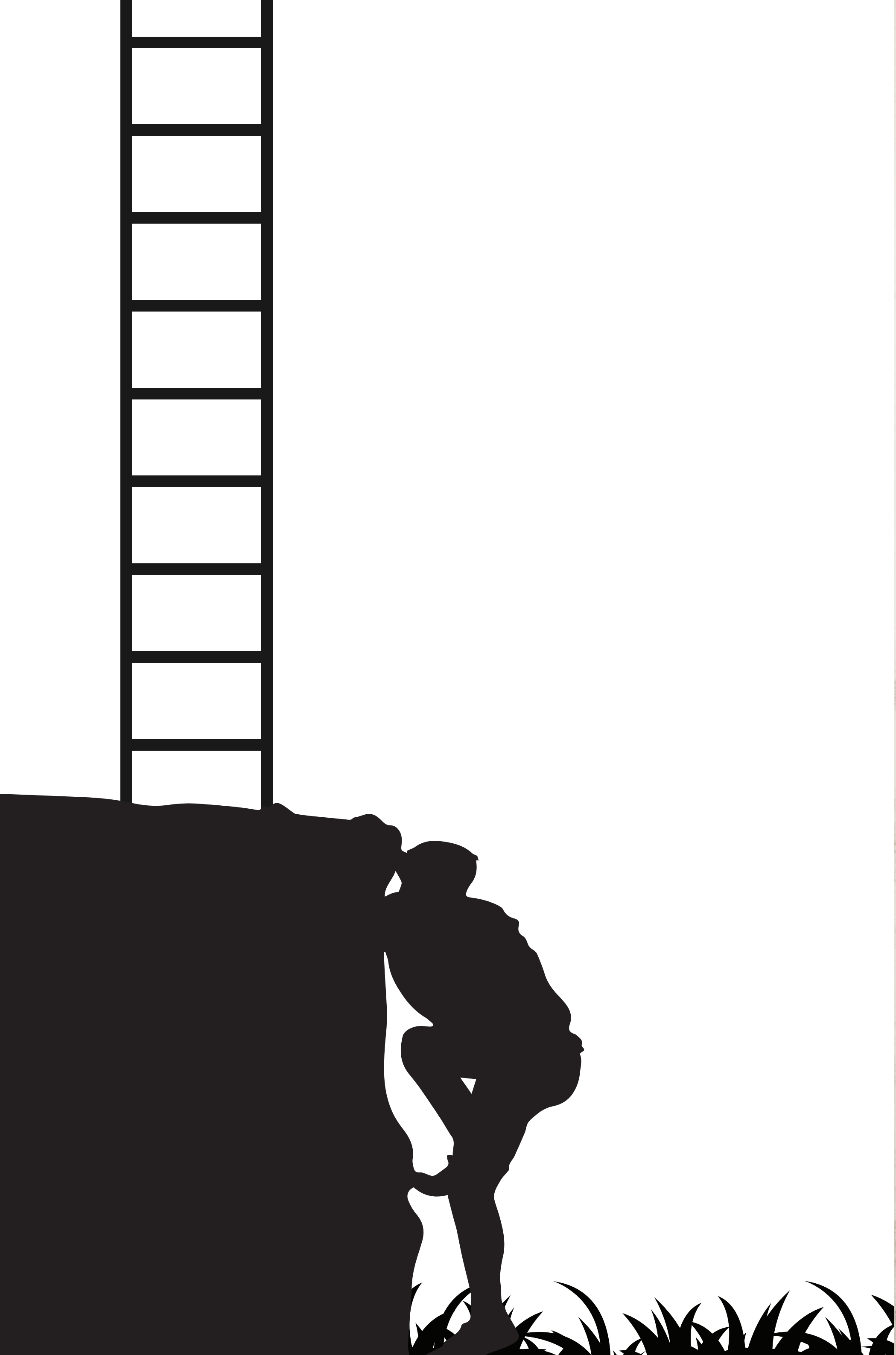

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة

عماد عبدالله حمدان

رقمنة

مشروع النشر الرقمي